

محمد سعيد العريان

أفلا

شجرة الدر

شجرة الدر

محمد سعيد العريان

شجرة الدر

اقرأ
دار المعارف للطباعة والنشر
٦٠



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بـمصر

أطرق الأمير صامتاً وطوّفت أفكاره تجتار المسافات
وتقطع الأبعاد البائية . فإنه لى مجلسه من ذلك الحصص
الدى اتحدته قاعدة لإمارته فى أقصى المشرق ، ولكنه مما
يصطرع فى رأسه من الحواطر وما يتراءى له من صور الماصى
القريب والبعيد كالتائه فى البيداء المترامية قد انفسح مداها
وتناعد ما بين أطرافها بعد ما بين حصص كيفا والقاهرة ..
أفمن أحل ذلك أحرجه أنوه من مصر وانترعه من بين
ممالكه وحده وقذف به إلى ذلك المنفى السحيق " ...

وثقلت وطأة الصمت على أصحابه وإن كانوا ليعلمون ما
يصطرع فى رأسه من حواطر فكأنما يسمعون حديثه إلى
نفسه ويبادلوه الرأى ، فقد طالعوا مد لحطات ما جاء به
البريد من أساء القاهرة فعلموا أن أميرهم مد اليوم ليس
ولياً للعهد . لأن ولاية العهد قد صارت مد اليوم لأحيه
الصنى سيف الدين .

صنى لم يبلع الحلم ، والدولة يكتنمها الخطر ويترص بها

الأعداء من كل حاب . فثمة الصليبيون يتحفزون للوثبة
على سواحل مصر والشام . والخطر المعولى يمد مده نحو العرب
ويكاد يبلغ بغداد عاصمة الخلافة ليثب منها إلى الشام ومصر ؛
فإذا يملك مثل ذلك الصنى أن يدفع من هذا الويل ؟ ألا أمه
« سوداء بنت نصر » أحظى نساء الكامل وآثرهن عنده ؟
فليهنه رضاها ولا عليه بعد ذلك أن يتدد ملك بى أيوب وتطأه
خيل الصليبيين والتتار .

. . وإذن فسيتقى الأمير نجم الدين فى حصص كيفاً أميراً
على ما يليه من بلاد الموصل ، وسيتقى معه أصحابه وبطائه .
فإن القاهرة منذ اليوم — أو منذ عد — قاعدة ملك الأمير
سيف الدين !

وهم الأمير فخر الدين بن الشيخ أن يتكلم حين ارتفع صوت
من وراء الحجرات يشد شعر الإربلى
وإذا رأيت بنيك فاعلم أنهم قطعوا إليك مسافة الآجال
وصل البنود إلى محل أبيهم وتجهز الآباء للترحال !
ورفع الأمير نجم الدين رأسه وأدار عينيه فيمن حوله وهو
يردد فى صوت خافت

. وتجهز الآباء للترحال .

قال الأمير فخر الدين قلماً

— أتعنى يا مولاي . .

فابتدر الأمير وعلى شفثيه ابتسامه خايه .

— ماذا فهمت بالله يا فخر الدين فقال ملك الجزع ؟ إن

هو إلا شعر طرق مسمعى فحرى على لسانى ، وإنه لأبى وإن

علبته على حزمه وإرادته سوداء بنت نصر !

ثم رم شفثيه وأردف قائلاً .

— ولكن ذلك الصبي لن يبلغ ما أرادت له أمه ، ولن

يكون له عرش مصر ! .

ثم انفض المجلس وتفرق أصحاب الأمير فصلى كل منهم إلى

وجهه ، وحلا الأمير إلى نفسه يدبر أمره . ولرم الطواشى صواب

بانه شاكى السلاح متأهلاً لما يصدر إليه من أمر . .

»

لم تكن الأساء التى حاء بها البريد فى ذلك اليوم من القاهرة

مفاجأة غير منتظرة ، فقد كان الأمير يعلم علم اليقين منذ

أبعد عن القاهرة إلى حصص كيفاً أن ثمة أمراً قد أحكمت بت

نصر تدبيره ليحلوا لسيف الدين وجهه أليه ، ولكنه مع ذلك لم

يكس يتوقع أن يتم ذلك التدبير سريعاً قبل أن يستكمل أهنته

للمقاومة ، ويتكثر من الحمد والعتاد ، ويصطنع أسباب المودة بينه

وبين حيرانه من أمراء الموصل ، وبينه وبين دوى قرابته من أمراء

بنى أيوب . وليس معه في هذا الحصن المائى من صحابته الأدين
إلا بضعة نفر . وليس له من الممالك إلا نضع عشرات ، إلى
نضع فرق من الحند لا تعنى عاء ، ومن أين له هؤلاء أن
يعلب أخاه على العرش حين تحين الساعة ؟

وتذكر نجم الدين أميراً من أمراء الموصل يرايط في طريقه إلى
مصر متربصاً به . ذلك هو بدر الدين لؤلؤ ، وإن له عند نجم الدين
ثأراً مند غله نجم الدين على سحر فاحتازها إلى إمارته وترك
حيثه أباديد على طهر البادية ، وما كان لندر الدين أن يسى ثأره !
وتذكر نجم الدين كذلك ثأراً أحريبه وبين السلطان عياث
الدين صاحب بلاد الروم .

أفيكميه شر ذلك كله بضع عشرات من ممالكه إلى بضع
مئات من الحند ؟ ولكنه قد عقد الية على أن يكون له دون
غيره عرش الأيوبيه ، ولا بد أن يتم له ما أراد
ذلك كان هم الأمير . على حين كان لكل واحد من أصحابه
في ذلك الحصن هم يشعله

هذا الأمير فحر الدين بن الشيخ قد أرق حفيه وأقص مصححه
ما حرى على الأمير نجم الدين وما يحشى أن يثول إليه أمره وأمر
الدولة إذا بدا له أن يشق عصا الطاعة أو يتمرد على أمر أبيه .
وإن عليه تعات تقتضيه أن يرحل إلى القاهرة بعد أيام ، فليس

يدرى ما يكون شأن نجم الدين بعد أن يفارقه ويمضى لوجهه .

وهذا الصاحب هاء الدين رهير قد برح به الحين إلى مصر
وإلى أصحاب هالك وصواحب ومنازل أهلة ومغاني مأنوسة كان
يمى نفسه بأن يعود إليها ، فالآن هيات هيات المعاد وقد صار
عرش مصر لعير نجم الدين أيوب ، فهو منذ بلغه ذلك النبأ يحسو
دمعه وحيداً ويشد

إلى كم حياتى بالعراق مريرة	وحتام طرى ليس يلتد بالغمص
وكم قد رأيت عيسى بلاداً كثيرة	فلم أرفيها ما يسر وما يرضى
ولم أرمصراً مثل مصر تروقى	ولا مثل ما فيها من العيش والخص
وبعد بلادى فالبلاد جميعها	سواء . فلا أحتار بعصا على نعص
إذا لم يكن فى الدارلى من أحبه	فلا فرق بين الدار أو سائر الأرض

وهذا أهلك الحاشكير رحل ليس له شأن ولا حظرى ذلك
الخص . ولكن مما يتحايل لعييه من الأوهام والأمانى . فى هم
مقيم مقعد رقيق من الترك قدفت به المقادير إلى ذلك الخص
فى مجموعة من الأرقاء والحوارى . فلرم الخدمة فى مطبخ الأمير
حاشكيرا يشرف على إعداد الطعام ويتدوقه قبل أن يمد الأمير
إليه يده . ليستوثق من حودة طهييه وطيب مذاقه ، فأتاحت له
هذه الفرصة أن يكون أدنى إلى الأمير مرلة وأعطى لديه من

عامة المماليك . وقد كان سعيداً بهذه المرة التي بلغ لولا حديث جرى مند أيام بينه وبين أبي زهرة المنعم فردّه من السلام والطمأنينة إلى حال من القلق واشتغال الفكر لا طاقة لمثله باحتمالها ، فهو مند سمع ذلك الحديث في هم وفكر ووحشة ، لا يكاد يتحدث إلى أحد أو يستمع إلى حديث أحد ؛ وما طك بمملوك متهن بين الأوعية والقصور يقع في وهمه أن سيصير يوماً ملكاً يجلس على العرش ويأتمر بأمره الملايين !

وقد ضاق أيبك آخر الأمر سره داك فأفصى به إلى طائفة من صحابته ليتحفظ منه ، فما كان إفضاؤه به إلا همّاً إلى هم ، فقد ركه أصحابه بالعبث والسخرية وجعلوا حديثه نادرة وأفكوهة يتملحون بها كلما طاب لهم الحديث في سر أو علانية ، وكان أشدهم سخريه منه وعثاً به أصحابه الثلاثة : آق طاي ، ويديرس ، وقلاوون

ولم يكن همه الجديد عبثهم وسخريتهم ، فإنه لأرحب صدرأ من أن يستمره العصب لمثل ذلك ، ولكنه يحشى أن يمتد الحديث حتى يبلغ الأمير فتكون الطامة وهل يطمع مثله في العرش والإمارة إلا أن يكون منطوياً لأميره على نية العدر !

قال قلاوون

— فإن كان أهلك قد خيلت له أوهامه أن سيصير يوماً ملكاً
تأتمر الملايين بأمره ، فإن من حق تلك الفتاة التي التقطها الجند
مذ أسابع في سنجار أن تكون ملكة على عرش بى أيوب !
قال بيدرس عائناً .

— وإنما لأهل لداك
فانفخت أوداج أهلك واحمرت عيابه غضباً لرجولته ،
وهتف معبطاً

— بالله ماذا تعنى يا بيدرس ؟

قال آق طاي في هدوء

— حسسكم أيها الرفاق . فإلستم لتوشكون أن تقتحموا مهلكة
إد تحوصون في حديث هذه الفتاة . فليس يعمل منذ اليوم أن
يجرى حديثها على لسان وقد احتطاها سيدنا ومولانا الأمير نجم
الدين ، فهي اليوم سرية من سراياه ؛ بل إنها منذ نزلت دار
الحريم أحطى حواريه إليه وآثرهن عنده

ثم أردف باسماً وهو يقلب وجهه بين أهلك وقلاوون
— ولم يعد قلاوون حين بدا لها أنها أدنى منزلة إلى العرش من
أهلك وإن كانت أنثى . إلا أن يكون أهلك أكثر إدلالاً لمخطوته
عند الأمير !

وأغرق الممالك الثلاثة في صحك عريض ، واحمر وجه أهلك ،

ولكن شفني لم تندس بحرف ، فقد آثر أن يتوقى الهلكة وقد عرض
ذكر مولاه ، ثم لم يلبث أن مهض ليشرف على إعداد مائدة
العشاء للأمير ، وسرح كل واحد من أصحابه في واديه ١

٢

لم يكن أحد في حصص كيف يعرف إلى أي حس من الناس
تنسب تلك الفتاة المثلثة التي التقطها حد الأمير ذات عادة في
سحار . فلا هي تركية ، ولا أرمنية ، ولا حركسية ، ولا من
بات الفريحة . فليس في وجهها ، ولا في لباسها . ولا في
حركتها . ما يوحي إلى الأصل الذي انشعبت منه ، ولكنها فتاة
من بات حواء قد اجتمع لها من حصائص الحسن النسوى ما
تفرق في النساء ألواناً وهوباً . ففيها من كل حس وليست إلى
حس . وإمها إلى ذلك لداهية أريية ذات تدبير وكيد ،
وتحس الخط والقراءة والغناء وما كانت تعلم عن ماضيها
ونشأها أكثر مما يعلم الناس . فقد أصبحت ذات يوم فإذا هي
حارية في دار . وما كان أكثر الجوارى اللاتي لا يعرفن لهن آباء
ولا أمهات ولا وطن في ذلك التاريخ البعيد ، كالأعشاب الطافية
تندبها على الساحل موحدة المد . لا يعرف أحد أين كان مبتها
قبل أن يقدفها الموح على الساحل ولا تعرف هي نفسها ، وكان

التار من دفعين يومئذ في موجة اكتساح هائلة قد بدأت من أقصى المشرق وقد طفا على ثجها عشاء وعشب قد احتنته من مابيت متاعدة ثم قدفته على الساحل .

وكانت طفلة حين احتملتها الموجة فومت بها إلى حيث رمت ، فلما بلغت سن التمييز عرفت نفسها جارية في دار ، فأقامت بها حياً ثم حملتها الأقدار على موجة ثانية فومت بها في دار غيرها لم يطب لها فيها المقام ، فصت على وجهها حتى التقطها جمد الأمير نجم الدين فزلت عنده مرلاً ربحاً وتقيأت طلا ظليلاً .

قال الأمير نجم الدين .
— ولكك لم تدكرى لى يا فتاة ما كان من حرك في قصر الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل حتى آثرت الفرار إلى حيث التقطك عسكرينا ؟

فرفعت الفتاة إليه طرفاً دياً ، ثم أطرقت وتسابت على وختيتها الدموع ، فدما منها نجم الدين وصمها إليه في حان وعطف . ثم أرسلها من بين يديه وهويقول

— لا عليك يا فتاة مما كان ولن أهيحك بعدد ذكره ، فطبيى نساء !

ثم حلاها بين يدي ماشطها وخرج لبعض شأنه .

قال الطواشى بدر الدين صواب لمولاه وقد حلا لها المجلس .
 — كأنا قد عرفتُ ما كانت تحرص الفتاة على كتمانها من
 حبر ماضيها . . لقد احتار الله لك يا مولاي واحتار لها .

قال الأمير في لحظة

— ماذا عرفت من حبرها يا صواب ؟

قال صواب :

— إنه تاريخ بعيد يا سيدى ، أفضى إلى سره جدى من
 الخوارزمية كان من حاصة السلطان جلال الدين بن حوارزم
 شاه . وقد عرفها مد كانت طفلة فى حجر السيدة فاطمة حاتون
 قبل أن تصير زوجاً للسلطان !

قال نعم الدين مدهوشاً :

— تعنى فاطمة بت طعل السلجوقى ؟

فأوما صواب برأسه

— نعم . ملكة تریز ، وسيدة العجم ، وزوج السلطان
 أربك البهلوان . فلما انقطع ما بين الخاتون وأربك حين أسرف
 فى اللهو والفاحشة وأهمل تدبير الملك ، حلعت الخاتون طاعته
 وانصلت عنه واستقلت بالحكم فى تبرير ، ثم حالت جلال
 الدين واتحدته زوجاً ، وحاصت معه الغمرات حتى أدركه الأجل
 فى حرب التتار وتدد ملكه ، فذهبت فى الأرض ، وقدف

المقادير بفتاتها إلى بدر الدين صاحب الموصل^١

قال نجم الدين ،

— هيه ! ثم ماذا يا صواب ؟ فوالله ما حابت فراستى فيها
وإن فى وجهها أمارات الملوكية !

قال صواب

— ثم لم يطب لها المقام ثمة حين أراد بات بدر الدين أن
يمتها مهمة الجوارى ولها لأعرق أرومة من بدر الدين وبنات
بدر الدين ، لأنها لدرة يا مولاي لم يلتقط مثلها غواص^١

قال نجم الدين وقد تهيأ للقيام

— بل هى يا صواب « شجرة الدر^١ »

وحطيت الفتاة منذ ذلك اليوم عند الأمير نجم الدين أيوب ،
فليس لغيرها من خطاياها وبنائه مكان فى قلبه ، ثم رادت خطوة
حتى صارت صاحبة الرأى والمشورة ، ثم زادت حتى ليس
لغيرها مع الأمير رأى ولا مشورة ، واستأثرت بالسلطان

على أن مكانة شجرة الدر عند الأمير لم تكن دون منزلتها عند
عند سائر الممالك والحمد وأصحاب الوظائف فى الحصص ، فقد
كانت من حصافة الرأى وسعة النفس ووسطة الكف بحيث
صارت بين الجميع ملكة بلا تاح ولا عرش ، يديون لها
بالحب والولاء والطاعة ؛ وكأما كانت شأنها الملوكية فى حجر

فاطمة بت طعزل ملكة ترير ، وتنقلها بين ألوان من السلطان
فى بلاط آل سلجوق ، وأربك . وحلال الدين — إرهاباً لما
بلغته من المجد والجاه فى بلاط الأمير نجم الدين أيوب سليل
القطاريف من حلفاء صلاح الدين

وسرى عن الأمير بعض همه ، ووجد روح الاطمشان
وهذوء القلب فى جوار صاحبه الفاتمة . ولكنه إلى ذلك لم يعمل
لحظة عما كان يجرى فى القاهرة من أحداث . فلا يزال يترقب
الفرصة التى تنهى له أن يرد إلى عرش الأيوبيين هيئته ويدفع
عن البلاد ما يتربص بها من شر الصليبيين والتتار ، ولا يزال
يردد مصححاً ومسيئاً بيتاً من شعر الإربلى هتف به الهاتف من
وراء الحجرات ذات يوم كأنما هو إندار من وراء العيب يوم
قريب للملك الكامل .

وصل السود إلى محل أبيهم ونجهر الآناء للترحال !
وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ فى القاهرة يرقب كذلك
ويتربص

٣

— سترتقى إلى العرش يوماً أيها الفتى ، وتلعب من المجد
والسلطان ما لم يخطر لك على نال ، ولكن .

— ماذا يا أنا رهرة ؟

— لا شيء ، أفليس يكفيك أيها المملوك أن تبلع العرش ؟

أفتطمع فوق ذلك في مريد من السعادة ؟

— بلى . ولكيك لم تفصح لي عن كل ما في نفسك ، أئمة

ما تحاف أن تفصي به إلى من أنباء العد ؟

ابتسم أبو رهرة المكفوف وهر رأسه هزات دائرية متتالية ،

ثم تنفس نفساً عميقاً وراح يمشط بأصابع يسراه لحية مسترسلة

على صدره وهو يقول ساحراً

— نعم ، سبت أن أقول إنك ستتروح . ثم تموت !

ردد أيلك في بلاهة

— أتروح ثم أموت !

قال أبو رهرة وهو يتحسس موضع عصاه إلى حابه ليهض :

— ألا تصدق هذا ؟ أتظن أن تموت أولاً ثم تتزوج بعد ؟

وقهقه في سخرية . ومضى في طريقه يذب على عصاه ،

وترك أيلك في مجراه !

ذلك كل ما جرى من الحديث بين أيلك الجاشكير وأبي

رهرة المسحوم ، ولا يرال أيلك مد سمعه في هم وقلق ، ولا يزال

أصحاه مد حدتهم نخره يركبونه بالعبث والدعابة والسخرية ،

لا يكاد يظالمهم وجهه حتى يحذوا من تشقيق ذلك الحديث
مادة للصحك والفكاهة .

على أن حديث ذلك المنجم لم يلبث أن فقد سحره بين هؤلاء
النفر من الممالك ، فقد أسراً أبو زهرة إلى بيبرس ، كما أسر إلى
قلاوون ، حديثاً مثل حديثه إلى صاحبهم أليك أو قريب منه ؛ فإن
صبح ما حدثهم به فسيكونون جميعاً ملوكاً ، ويتزوجون ، ثم يموتون ...
وأين البلد الذي يتسع عرشه لثلاثة ملوك ، أو أربعة ؟
قال آق طاي عابثاً :

— لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا . صدق الله وكذب

المنجم !

فضحك بيبرس وقال

— أفلمست تريد أن تستنبته مثلنا أبناء عدك ، فلعله أن

يبايعك مثلنا ملكاً رابعاً !

قال آق طاي .

حسه أن يسحرهم ، أما أنا فلمست أريد أن أكون ملكاً ،
وليس يعينني أن أتزوج قبل أن أموت أو أموت ثم أتزوج
وأعرق الممالك الأربعة في الصحك ثم تفرقوا فذهب
كل منهم إلى وجهه

ومصب أيام قبل أن يتجدد حديث أنى رهرة بين الممالك .
 ذلك أن أيبك الجاشكير قد أشرف على الموت ، ولم يتزوج ،
 ولم يبلغ العرش ، وهؤلاء أصحابه قد تحلقوا حول فراشه مشفقين
 حرعين ، وهويئس ويتلوى قد احتقن وجهه وتقلص جبينه ، وهذا
 رسول الأمير نجم الدين يسأل عن حاله قلقاً مثلهم مشفقاً أن
 يبال ذلك المملوك المخلص سوء .

وطل أيبك في الفراش أياماً يتوقع أصحابه في كل لحظة أن
 يترعه الموت من بينهم ، ثم رايله الخطر وبجا ، ورفت البشرية
 إلى الأمير نجم الدين فسرى عنه واستبشر . فما كانت
 نجاة أيبك إلا نجاة للأمير من شرّ كان يتربص به ، فقد كان
 الأمير حالساً إلى مائدته ذات مساء وقد قدم إليه عشاؤه ،
 وتذوق الجاشكير الطعام على عادته قبل أن يمد الأمير إليه يداً ،
 فلم يكذب يحس مذاقه حتى صاح عجلاً :

— في الطعام سم يا مولاي !

وعثيث نفسه ودار رأسه ، فلولا أنه استند إلى الجدار لهُوى
 بين يدي مولاه . وهص الأمير عن المائدة لم يصب منها شيئاً ،
 وحمل أيبك الجاشكير إلى فراشه والسم يمرق أحشاءه .
 وكافاه الأمير على ما ناله ، فعقد له على جارية من بنات
 الإغريق ذات جمال ودلال وفتة ، كانت من سبايا الأمير

عادة عودته من حرب عياث الدير صاحب بلاد الروم ،
ولكها ترعم أن لها نساً ملوكياً في بلاد الأشكري صاحب
القسطنطينية . وكانت يحملها ودلها وما ترعم من عراقه أصلها ،
دات حظوة بين حوارى الأمير . حتى علتها على مكاتها شجرة
الدر ؛ ثم زيت للأمير من بعد أن يهبها لملوكه أيبك ،
لتخلص منها ويحلوا وجه الأمير

قال بييرس لصاحبه صاحكاً

— هذه ببوءة من ببوءات أبى رهرة قد تحقق يا أيبك ،
وتزوجت قبل أن تموت !
قال آق طاي

— ولكن ببوءة أبى رهرة لم تبلغ به العرش وكان حقيقاً بأن
يبليه قبل أن يتزوج لو صدق المسح !!
قال قلاوون ساحراً

— بل أراه قد بلغ أوكاد . أليست روحته من ببات الأشكري
فيما ترعم ، فقد أوشك أيبك أن يجلس على عرش أبيها في
القسطنطينية !

قال أيبك مسترسلاً فيما بدأ أصحابه من الدعابة

— ويكون من وزرائى آق طاي ، وبييرس ، وقلاوون !
فصاح آق طاي مصطعاً هيئة العصب

— احسأ ! أكون مثلى وريراً لك !

قال قلاوون .

— أما أنا فقد رصيت أن أتوررك . على أن نجعل لى

العرش من بعدك !

قال ييرس

— بل يكون لى العرش من بعده وتكون وريرى وولى

عهدى يا قلاوون !

قال آق طاي

— اقتسموها بينكم على أى وجه شئتم ، أما أنا فلن أطلب

العرش قبل أن أطلب روحة من سات الملوك لم تدحل تحت

رق قط !

٤

حلت شجرة الدريين يداى ماشطتها ترحل لها شعرها
وتصمحه بالطيب وتعقد منه ما تعقد حلقات وترسل ما ترسل ،
وشجرة الدري عقلة عن نفسها وعن ماشطتها وما تقف فيه من
أسباب ريبتها ، قد سرحت حواطرها وما وهالك ترود أقطاراً
لم تقع عينا عليها قط ولم تتمثلها فى وهم ولا فى حقيقة ترى
مادا فى القاهرة وعلى الليل من معانى الحس ومجالى الهوى فإنها

لتفعم وحداد كل من في هذا الحصن حيناً وطقة ، فلا تزال
كلما أرهقت أدناً سمعت منشداً يشدو أو حارية تعي
جبدا دور على الليل وكاسات تدور
ومسرات تموج الأرض مها وتمور
وقصور ما لعيش نلتها فيها قصور
كم مها قد مرى - أستغفر الله - سرور
كل عيش غير دلك العيش في العالم رور
متزل ليس على الأرض له عدى بطير !

« دور ، وكاسات ، ومسرات . وقصور ، وسرور ، وكل
عيش غير ذلك رور » . تلك أغنية الجميع في ذلك الحصن
شباناً وكهولاً ومشيحة . حتى الأمير نفسه - على ما فيه من
وقار الإمارة - لا يكاد يحلو إلى نفسه ساعة حتى يحرق على
لسانه بيت أو أبيات من مثل ذلك الشعر ، فيه الهوى والحين
واللهمة ، ولا يرال بهاء الدين زهير ، ذلك الشاعر الوشاء ، ينظم
كل يوم حديداً من الشعر يدكى به عواطف الشباب والكهول
ويبعث الشوق والحين

وهاج بها داء الأنثى فتحيلت في سر كل أعية من تلك
الأعاني بضعة قلب عاشق معارق ، فهشها عقارب العيرة ،
إسها لتريد نجم الدين حالصاً لها من دون النساء !

وفرعت الماشطة من زينة سيدتها ولم تؤب السيدة بعد من
سرحتها في عالم الأوهام ، وهتمت بها الماشطة
— سيدتى !

فانتهت شجرة الدر كأما آت من سفر بعيد ، واعتدلت
لترى صورتها في المرأة مقبلة ومدبرة ، ثم ابتسمت ، فأشرقت
انتسامتها بالور على وجه لم ينطع في المرأة أجمل منه ، فرضيت
وقرت عينا ، وعطمت حيدها إلى الماشطة شاكرة
— لله ما صنعت يداك يا فتاة !

قالت الحارية

— بل سحاح الذى خلق موسى يا مولاتى ، لقد أثر الله
مولائى الأمير من هذا الحمال سعة لم يطفر مثلها أحد من
ملوك الأرض ، وإنه لحقيق بما نال !

فابسطت نفس الأميرة بما سمعت من تناء الحارية ،
وأنتت إليها فأقلت عليها تحدثها وتستمع إليها ، كأما تريد أن
تزيدها حديثاً عن حاملها ، أو أن تبدأها حديثاً آخر عن الأمير
الذى تريد أن تستأثر بحبه فيكون قلبه حالصاً لها من دون النساء

قالت شجرة الدر

— منذ كم تعيشين في قصر الأمير يا فتاة ؟

قالت الفتاة

— مند نشأت يا سيدتى . وكانت أُمى ماشطة السيدة
« ورد المي » والدة الأمير . فاحتصت بحدمة مولاي مند
كان نائباً عن أبيه الملك الكامل في القاهرة
ثم أردفت الفتاة وفي عيبيها حين ولعة
— آه يا سيدتى لورأيت القاهرة ! إنها عروس المدائن ،
ولقد شهدت في رحلتى إلى هذا الحصن : دمشق ، وبعداد ،
وكثيراً من بلاد المشرق ، فوالله ما رأيت لبدأ كمصر ولا بهراً
كالنيل !

فأسلت شجرة الدر حفها وقالت وعلى شفيتها انتسامة
— لعل لك هوى في القاهرة يا حهان !
فاحمر وجه الفتاة من حياء وأعضت ، ثم قالت .
— إن هوائى يا مولاتى حيث يكون هوى الأمير !
قالت شجرة الدر في حبث
— وأين هواه اليوم ؟
قالت وفي عينيها إعجاب
— إن هواه اليوم يا مولاتى حيث تعرفين ، وإنه حديث
كل من في الحصن !

وسمعت خطوات تقترب من باب المخدع . فهمت الفتاة
معاودة المكاد . وحطمت شجرة الدر بظرة إلى مرآتها قبل أن

تخطو إلى الباب لتستقبل مولاها
 ونحلا المكان إلا من اثنين ، ولكن الأمير ظل صامتاً حامد
 الوجه قد سرح فكره وصوب نظره ثابتاً لا يكاد يطفو ،
 وتعلقت به عينا صاحته صامته مثله لا تجرؤ على أن تبدأ
 الحديث . وطال بينهما الصمت ، فما قطعه إلا صوت مطرب
 يعنى من وراء الحشرات بشعر رهير

حددا دور على النيل وكاسات تدور !
 وثابت إلى الأمير نفسه فتعفس نفساً عميقاً ، ثم هر رأسه
 وهو يردد

— حددا دور على النيل
 وانقبضت نفس صاحته واعتادها داؤها وتحيلت ما تحيلت
 من أوهام الأثني . ولكنها كطمت نفسها وقالت وهى تصطع
 الهدوء .

— أرى مولاى نحاة إلى أن يسمع عاء ليتحف من
 بعض أنقاله ويريل متاعه !
 قال الأمير باسمياً

— حددا يا شجرة الدر !
 فقامت إلى حرانها فأحرجت عوداً فاحتصته وحت عليه

وراحت أصابعها تجس أوتاره ، ثم رفعت إلى الأمير عيين
فانتين وهي تقول .

— أفريد مولاي أن أعى له ذلك الصوت أم يقترح
صوتاً غيره ؟
قال الأمير .

— بل تقترحين أنت ؟

فأعصت رأسها ومرت أصابعها على العود ، وارتفع صوتها
رويداً رويداً .

أغار عليك من عيى ومى . وملك ومن مكانك والرمان
ولو أنى حأئتك فى جموى إلى يوم القيامة ما كفى !
قال الأمير وقد استحمه الطرب

— ولا كفى !

ثم مد إليها يداً فأهصها ومصيا يحوساد حلال العرفات
سعيدين بما نلعا من نعمة الحب والوفاء

لقد عرفت شجرة الدر مكانها من نفس أميرها وعرف نعم
الدين مكانه . وكانت من العيرة عليه والرعة فى الاستئثار به
فى مثل غيرته وأثرته . فلم تدع له مد توائفا على الحب أن يفكر
إلا فيها أو معها ، ولم يدع لها : لا تريد ولا يريد أن يستأثر أحدهما
دون صاحبه شىء ، ولا أن يفكر مفرداً فى أمر ، فهما سواء

وعلى رأى مشترك فى الحب ، وفى الحرب ، وفيما يصطنعان من أساليب السياسة لإدراك العرش ، وعادت عيرة الأنثى على رجلها عيرة ملكة على السلطان تريد أن يمتد ظلها على البسيطة ويدين لها الملايين بالطاعة والولاء !

٥

اطمأن الملك الكامل إلى عاقبة أمره وسلامة تديره حين استخلف ولده العادل سيف الدين على عرش مصر وجعل ولده الصالح نجم الدين على عرش المشرق ، وحيل إليه أنه يستطيع أن يخلد إلى الراحة والسلام ما بقى من أيامه وقد بلغ الستين من عمره . جلس منها على عرش مصر أربعين عاماً ، نائماً عن أبيه أو مستقلاً بالحكم

على أن الملك الكامل — على حكته وأصالته رأيه وطول تمرسه بالحكم — لم يلق نالاً إلى ما قد يحد تديره ذلك من معارضة الأمراء العظام من آل أيوب ، ومنهم إخوانه وأبناء عمه أمراء الشام ، وكلهم يرى نفسه أحق بعرش مصر من ذلك الصبي . كما عمل عما قد يلقى ذلك التدبير من مقاومة ولده الصالح نجم الدين نفسه ، وهو أرشد نبيه وأحقهم بحلافته على عرش بنى أيوب

فلم تكذب تدبى تلك الأبناء من القاهرة حتى تمرد أمراء الشام وشقوا عصا الطاعة ، فشبت سلسلة من المعارك بينهم وبين الكامل لم تدع له فرصة لما كان يأمل من الطمأنينة والسلام ، على حين كان ولده الآخر فى حصن كيفا يدير تدبيره فى صمت ويتحين الساعة التى يقص فيها على عرش القاهرة فيستخلصه لنفسه ، وكانت توارره فى التدبير روجه الشاة الطموح شجرة الدر ، وقد ارتفعت منزلتها عند الأمير منذ ولدت له ، فلم تعد كما كانت منذ قريب حارية محتطاة ، ولكنها روجه وأم ولده وصاحبة تدبيره وشريكته فى الجهاد ، وقد أخذ لها هذا المولود أماناً واسعة ، فهى اليوم روجة الأمير الذى يهين نفسه لعرش مصر والشام والحزيرة وما يليها من البلاد ، وهى فى عد أم السلطان خليل ابن السلطان نجم الدين وحليفته على عرش بنى أيوب ، وتجتمع فى يديها كل السلطات !

قال الأمير وقد تناول الطفل بين يديه وتمثل فى نظرة عيبه كل حسان الآبوة

— هذا يومك يا بنى فليت لى علماً عن عدك !

ففرقت عينا أمه وسرحت محواطرهما تتحطى الرمان والمكان وثناً فكأن قد رأت نفسها على عرش مصر سلطانة ورأت فتاها .

فلم يردها من سرحتها إلا حاضنة الصبي وقد افتر شعرها عن
انتسامة الأمل وهي تقول

— سيبلغ حيث أردت يا مولاي تنويع الله . وتهتف
باسمه الخلائق في شرق الأرض وعربها ، ويفيض المجد على كل
من حوله من آل بيته !

قالت شجرة الدر وقد اتسعت نفسها حتى شملت كل ما
حولها برأ ورحمة

— ويبيض بزه على حاصسته حاتون التي دشرت بما يلعبه
من المجد قبل أن يدرج من مهده !
قالت الحاضرة .

— وتكون كل سعادتي يومئذ يا مولائي أن أناهي بأبي
حاضرة السلطان خليل وصفيّة أمه ، إن راقك يا مولائي أن
تصطلي مثل جاريتك حاتون !
فربت الأميرة كتمها قائلة

— بل إن أمه يومئذ لتباهي بأبك حاضرة ولدها !
ودس الأمير يده في حبيبه وبثر كيساً من ذهب في حجر
الجارية ، ثم انصرف لشأه وحلى المرأتين تتحاوران إلى جانب
مهد الصبي ..
قالت خاتون

- إن لأنى رهرة المعجم يا مولاتى أسباباً وثيقة إلى العيب ،
ولنه لشيخ قد عمى وكف نصره ولكنه فيما يروى من أساء العد
كأما يقرأ فى لوح مسطور !

قالت شجرة الدر

- وتؤمنين بما يهرف به هؤلاء المشعودون يا حاتون ؟

قالت .

- إنه إلا يصدق يا مولاتى فيما يحدث به من ألباء الغيب
محسبه أن يبدل بدور الأمل ويبدل السلام والطمأنينة ، وقد
استمعت إليه منذ أيام يتحدث إلى جهان ماشطة مولاتى حديثاً
ما يرال له حمرة فى وجنتيها وبريق فى عينيها ، كأن قد بلغت كل
المى ، وما زاد الأمر على حديث سمعته !

قالت شجرة الدر حادة :

- ماشطتى جهان ؟ فادعها إلى " لاسمع حديثها !

فعضت حاتون على شفتها وقالت

- معذرة يا مولاتى ، فما قصدت أن أفضى سر جارية من
حوارى مولاتى تحلص لها الحب ، وإنما استرسل بى الحديث
وأعراى عطف مولاتى !

قالت

- لا عليك من ذلك يا حاتون ، وإنما يشوقى حديث تلك الجارية.

فهضمت حاتون لأمر سيدتها . ومالت شجرة الدر على مهد
الطفل النائم تنشق من عقب أنفاسه روح الأمل .

* * *

وكانت حهاان فتاة مشبوبة العاطفة مرهفة الحس ، وقد
نشأت جارية في بيت نى أيوب بالقاهرة ، ولكن مكانة أمها
من « ورد المى » أم الأمير نجم الدين قد هيأت لها بين جوارى
الأمير مرلة خاصة فرصت عليها نوعاً من الوفار والترمت حال
بينها وبين كثير من مسرات الشباب ، فطلت عذراء القلب ، إلى
عاطفة مشبوبة وحس مرهف ، ثم تهيأت لها الفرصة ذات يوم
للحديث إلى المملوك بيرس ، فسرى بينهما تيار الحب وما كشف
لها عن ذات صدره ولا كشفت له ، ثم أعلق من دونهما الباب
فما رآته ولا رآها من بعد . ووقع في شرك الحب قلنان لا يجدان
وسيلة إلى اللقاء ولا سبيلا إلى السلوان !

ولم تكن الفتاة تدرى بما يعتلج في نفس صاحبها من الهوى
ولا كان هو ؛ ولكنها من الوحدة والكتما كانت أشبَّ عاطفة
وأشد قلقاً ، فالتفت أبا رهرة المعجم تستعيه على أمرها وتستبئيه
أبناء العد ، فأبأها ، ولم يزل لحديثه مدد ذلك اليوم حمرة في
وجحتها وبريق في عينيها ، وعرفت خاتون من خبرها على لسان
المعجم ما عرفت فتحدثت به إلى مولاتها شجرة الدر

قالت الأميرة

— وإدد فأنت على ثقة من حبه يا حهاا !
فأبعضت رأسها وتصرحت وحتاها من حياء ولم تحب

قالت شجرة الدر

— لا تراعى يا فتاة . إن بيبرس حدى من حد الأمير
يرحى عده . وإنك لتعرفين مكانك من نفسى ومن نفس
الأمير . فسيجتمع شملك ببيبرس وتكوين له ويكون لك ،
ولكن عليه قبل أن يطعربهده الأمية أن يؤدى ثمنها !
ثم استصحكت وقالت .

— وفى دار على الليل يا حهاا ليس مثلها فى الأرض ، يكون
اجتماع شملك ممن تحيين ، وتعين له ويستمع إليك حدا دار على
الليل أما هما فلا ، إن عليه سغراً طويلا قبل أن يبلع منزلك !
قالت الفتاة ولم ترل فى إطرافها

— شكراً يا مولاتى

فهدت الأميرة إليها يداً فأهضتها وهى تقول .

— لا شكر اليوم يا بية . فانتطرى حتى ترى وبرى ما
يكون عدك !

ودرى بيبرس بكل ما كان من خبره وجبر صاحبتة ، فاعتقدتها

يداً للأميرة عده تقتصيه الوفاء ، وكان همه مند اليوم أن
يلتمس أسباب رصاها ، وأفعم قلبه الأمل !

٦

لم يحذ الملك الكامل ما كان يأمل من الطمأنينة والسلام ،
فلم يكذ يقصى على أسباب الفتنة التي أشعل نارها أمراء
الأيوبيين في الشام حتى بعته الموت ، ثم لم يكذ يوارى الثرى في
دمشق حتى تجددت مطامع الأمراء في عرش نبي أيوب .
وبلغ النعمى الملك الصالح نجم الدين في حصن كيبا ، فأعد
عدته للمسير إلى مصر

واستأثر العادل سيف الدين بالملك ، وتوأ عرش أبيه في
قلعة الجبل . ووضع يده على حرائمه وما حلف من مال ومنازع ،
واتحد له حاشية وبطانة

وبدأ رحف الصالح نجم الدين أيوب من المشرق ليستخلص
لنفسه العرش . وكان على رأس حده بيبرس وأيلك وقلاوون
وآق طاي ، وإلى يمينه وشماله مشيران أميان شجرة الدر أم
حليل ، والصاحب هاء الدين رهير . وتتانتعت الرسل من القاهرة
تستحثه على الإسراع فأعد السير معرباً وقد طمحت نفسه
بالآمال ، ولكن كيباً كان قد أعده بدر الدين لؤلؤ عند سبجار

قد برر هجأة في طريقه . فتعثر حده واقتيد أسيراً إلى قلعة
سحار . ليس معه إلا روحه وقليل من صحاته ، وحيل بيده
وبين أمانيه . . .

قال نجم الدين مستيئساً

— هذا يا شجرة الدر آحر المطاف ، فما أطبى أحلص
ولياك من هذا المعتقل . وإن لدر الدين عدى ثأراً لا يساه
وقد أدلت كبرياءه وحطمت حده وجعلته مثلاً بين الأمراء .
وقد أقسم من يومئذ إذ حصلت في يده ليحطمن كبريائي
فيقتادني إلى بغداد حبيساً في قفص مصعداً بالأغلال !

قالت شجرة الدر

— لا عليك يا مولاي من وعيد بدر الدين ، فما أراه والله
بالعاً من ذلك شيئاً . ولن يحصل في يده نجم الدين ، ولا شجرة
الدر ، وسينوء بالحسار في العاقبة كما ناء في الأولى !
فهر نجم الدين رأسه وارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو
يقول

— ومن أين لنا الخلاص ومن دوننا هذه الأسوار وهؤلاء
الحراس وليس لنا من الحدة قوة تعي في اقتحام هذا الحصن !
فجاوبته ابتسامة بابتسامة وقالت

— دع تدبير ذلك لي يا مولاي ، فوالله لا يكون إلا ما تريد !

فلما كان المساء كان القاصي بدر الدين السجاري مرتفعاً إلى ناهدة من نواهد القلعة تشرف على الطريق يتهياً لأمر قد أعدت عدته ، فلما تجلب الكون بالظلام ههه فانتطق بجبل من كتان ودلاه صاحاه من الناهدة رويداً رويداً حتى لامست قدماه الأرض . فحل مطقته ومضى في طريقه معرباً لا يلوى على شيء ، وطال به السرى والتهجير لا ينشد الراحة لحظة ، حتى بلغ مصرناً من مصارب الحوارمية فتمهل ، ثم سأل عن خيمة الأمير حسام الدين بركة مقدم الحوارمية فدل عليها ، فاستأذن ودخل ، ثم دفع إليه رسالة من شجرة الدر . فما كاد يتلوها حتى أدناها من شفتيه فقلها ثم رفعها إلى رأسه تكريماً وأصبح مد العد على الطريق إلى سحار يقود جيشاً من الحوارمية يحجب عبارته وحه الشمس !

وكان الحوارمية مد انحلت دولتهم وعلهم التنازع على بلادهم بعد مصرع السلطان جلال الدين — قد تفرقوا في البلاد يترقبون سيوفهم في جيوش الإمارات المتنافسة . فهم جند كل دى مال من الأمراء . يعلب بهم ما وسع عليهم الرق ، فإذا قص يده انقصوا عنه يلتمسون رفقاً جديداً في جيش جديد ، على أن بقية من الحفاظ والمرودة كانت تحفرهم أحياناً إلى ألوان من البطولة والمعدة تذكر ببعض ما كان لهؤلاء الحمد أيام عز

دولتهم من المحد والكرامة . وقد حاءهم كتاب شجرة الدر فلم
يسعهم أن يتحلوا عن تقاليد الروسية المحيدة التي ناشدتهم إياها ،
فهبوا لنجدة الأسيرين الكريمين في قلعة سسجار

وكان الملك الصالح قد بلغ منه القلق مبلغه لا يدرى أين
ينتهى به الأمر وقد أعلقت من دونه أبواب هذه القلعة ، على أن
شر ما كان يحشاه ، أن يقطر أسره إلى مكان شجرة الدر فيقتادها
إلى الموصل حيث كانت قل أن تأوى إلى كهفه ويثار نارين
من عدوه بحم الدين !

ومضى نجم الدين يحوس حلال القلعة قلقاً حيران ، فادا
جماعة من صحابته في الأسر قد تحلقوا حول شيخ مكهوف البصر
يستمعون إليه خاشعين مستغرقين في الفكر فلم ينتبهوا
إلى موقف الأمير مهم على مقربة ذلك أبورهرة المنجم ، وكان
قد خرج في ركب الأمير يقصد مصر فافتيد أسيراً مع الأسرى ،
وأولئك أصحاب الأمير يستمعون إلى ما يحدثهم به من أساء
العيب ، ليصرفهم ذلك عن بعض ما يلقون من الصيق والقلق
والملال ووجد الأمير في حديثه ما يصرفه عن بعض ما يلقي ،
فدعاه إلى خلوته وحلس يستمع إليه .

وكان حند الحواريمة يقتربون من القلعة وقد سبقهم الغار .
فأسرعت شجرة الدر إلى الأمير تنبئه النأ ، ورأت أبا زهرة في

مجلس الأمير ، فقالت صاحبة

— لعل المسجم يا مولاي قد سبق إليك بالبشرى !

فرجع الأمير إليها رأسه وقال في لهفة

— ما وراءك يا شجرة الدر ؟

. قالت .

— الخير يا مولاي كل الخير

ثم صحته إلى حيث يرى

وأطبق الحوارزمية على حمد صاحب الموصل فلم يدعوا لهم
فرصة للدفاع ولا سبيلا إلى الفرار ، وعص الميدان بأحساد القتلى
والحرعى وتحصنت الأرض بالدم ، ونحا بدر الدين لؤلؤ برأسه
وحيداً على فرس عاطل يطالب البيداء ، وافتتح باب القلعة
وخرج الملك الصالح وأصحابه يستأنفون السير إلى مصر ووراءهم
من الحوارزمية حيش لحب . وانصح أمامهم المدى ١

وعلى امتداد الطريق بين الموصل والشام كان إلى
حانب مركب الأميرة مركب آخر يصم طفلاً بين يدي
حاصسته ، ولید لم يلع سس العظام . مهزول ضعيف ، ولكنه من
عظم الشأن بحيث لا تكاد الأميرة شجرة الدر تفكر إلا فيه أو
تحمل إلا هممه ، ألم يحدثها أبوهررة المنعم أنها ستلع باسمه
العرش فتملك وتحكم وتلع من الحمد ما لم تبعله امرأة في

تاريخ المشرق والمغرب ؟ ولكن أنا رهرة لم يفصح عن كل ما في نفسه . فلم يثنها ماد سيكون شأن ذلك الصبي ، وإنما حدثها عما سيكون شأنها هي باسم الصبي ما معنى هذا وما دلالة ؟ على أن ثمة إشارات أخرى عامصة كانت تتحلل حديث ذلك المسح لا تكاد تخطر إلى مفهومها ولكنها تملأ نفسها قلقاً وريبة ، وإيها إلى ذلك لتحس أن في نفس الملك الصالح من القلق والريبة مثل ما بها مدد نعتته ذات يوم يتحدث إلى ذلك المسح في قلعة سحر ، أترأه قد أسر إليه حديثاً عنها وعن ولدها مما يقلق ويريب ؟

وتورعتها الطوبى فلم تكذ تستقر على رأى . ثم ثابته إلى الطهانية والسلام وطرحته كل ما كان يعمل في نفسها من الأوهام وأوتت إلى روحها ذات ليلة فاحتضت عودها وحلست تعبها صوتاً بعد صوت ، وتنقل به في مجالى الأسس مرحلة بعد مرحلة . وعت .

دع الحوم لطرق يعيش بها وبالعريمة فاهص أيها الملك !
 إن النى وأصحاب النى هـوا
 عن الحوم . وقد أنصرت ما ملكوا !
 وهب الملك واقفاً فدنا منها وهو يقول

— لله أنت يا شجرة الدر ! فالله إلا ما حدثني من أين لك العلم بمكود صدرى !

فاستصحت وقالت

— لأننى من ذلك الصدر يا مولاي فى أرحب مكان !

وسرى عن الملك ما كان ينتاه من القلق والريبة مد استمع إلى حديث أنى رهرة المسجم فى قلعة سجار فساء ظناً بولده وبروحته ومحاشيته جميعاً ، وعجب لنفسه كيف اطمأن إلى حديث ذلك الشيخ المكفوف وأنكر ما تراه عياه فى روحه من صدق الاخلاص وحسن المودة وكريم التقدير ! الأما — فيما رعم المسجم المكفوف — تسعى إلى العرش وتلتمس الأسباب إلى السلطان وتضطع من بطانته من تضطع لده العاية باسم ولدها ٢ ومادا يريه فى ذلك وإها لروحه وأم ولده ٢

وعاد ما بين الروحين إلى الصفاء والمودة !

٧

وبلع الملك الصالح بحيشه دمشق . فتلت يتطر ما يكون من أمره وأمر أمراء الأيوبيين فى الشام . وما يأتيه من أساء القاهرة

وكان العادل فى مصر قد ساء سيرة وفسد سريرة وأسرف فى

بدل المال حتى أوشكت أن تفقد خرائته ، وقد علبه أصحابه على رأيه فأعظامهم مقادته بصرفه في الدولة كيف يحلوهم ليفرغ لشهواته ومصادله . واطرح أمراء أبيه وأقصاهم عن السلطة وأمعن في مطاردتهم والميل عليهم ، وترامت إليه الأسياء بحركة أخبه الملك الصالح بحم الدين فقصص على أصحابه واستصحب أموالهم وألزمهم دورهم أو ساقهم إلى معاقل الأسر ، وقصص على الأمير فخر الدين بن الشيخ ، ولنه وإخوته يؤئد لأعظم أمراء الدولة حرمة وأرفعهم مرتبة . إذ كانوا — فوق مكانتهم في العلم والدين وماضيهم المجيد في خدمة الدولة — إحقوة أبيه الملك الكامل بالرضاع وكانوا أحطى لديه من سائر أمرائه وأدنى إلى السعب مرتبة .

وضاق الناس بالعاذل وثقلت عليهم أيامه ، فتوحوها بقلوبهم إلى المشرق يؤملون أن يطلع عليهم من هناك من يخلصهم من نعي ذلك الملك الصبي !

وترادفت الرسل على الملك الصالح بحم الدين أيوب على أن طائفة من أمراء الأيوبيين بالشام كانوا يطمعون في عرش مصر . منهم من يستعلن ببيتهم ومن يستحق . وكان أكثرهم سعيًا إلى تلك العاية هو الناصر داود — ابن عم الصالح — أمير الكرك والشوبك وما يليهما من أرض الأردن .

وكانت روحه ست الملك الكامل ، فاصطنع أسلوباً من السياسة بين الأخوين المتنافسين على عرش الأيوبيه إن لم يبلغ به ما يؤهل من الوصول إلى العرش فحسه أن يكون له عرش الشام خالصاً

وراح الناصر يتوحد إلى الملك الصالح نعم الدن ، وإن الرسل والرسائل لتترد بينه وبين العادل في مصر ، وانحاز إليه طائفة من أمراء الشام ، وتبقى على الولاء للعادل أو للصالح طائفة . وآثرت طائفة ثالثة أن تعمل لنفسها أو تغتزل الطائفتين جميعاً . وعص الميدان الشاى بأصحاب المطامع

كان الملك الصالح سائلس ليس بينه وبين الطغر إلامرحلة ولم يكن معه ثمة إلا طائفة قليلة من عسكره ، على حين كان سائر جنده مبثين في مدائن الشام يوطئون لمولاهم سبيل الوصول إلى غايته . وكان القمر يسطع في السماء قد أوشك أن يصير بدرأ ، وقد عكف المؤمنون على صلواتهم ، طيبة نفوسهم قريرة أعينهم قد امتلأت قلوبهم دشراً ومسرة . فقد كانت تلك ليلة الثاني عشر من ربيع الأول ، ذكرى مولد النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم وعلى حين عقلة دوى بغير الحرب ، فهب الملك الصالح وأصحابه إلى آلة حرهم يطون أن قد طرقتهم خيل

الصليبيين . ولم تكن إلا مكيدة مبيتة من الناصر للإيقاع بالملك الصالح نجم الدين . فما كاد يرز من حيمته إلى العراق حتى أحاط به طائفة من حشد الناصر فاقتادوه على نعلته بلا سرج ولا ركاب يعدون به السير في البادية إلى قلعة الكرك ، واقتيدت معه امرأته وولده وقليل من صحابته . فألقى بهم في عيابة القلعة أسارى لا حول لهم ولا حيلة . وأبلغ البأ إلى العادل في مصر وكتب إليه الناصر يقتضيه الثمن ! وأقيمت الزينات الملوكية في القاهرة فرحاً بخدلان عدو السلطان العادل وذهاب أمره

على أن العادل لم يكن ليطمئن ويهدأ باله . وعدوه ما يزال حياً ولا سبيل له عليه . فبعث إلى الناصر مال حم على أن يسلم إليه أخاه . ولكن الناصر لم يكن ليحده المأل عن أمله ، فبعث إلى العادل يطلب إليه أن يدع له عرش الشام خالصاً قبل أن يسلم إليه أخاه ، وترددت بينهما الرسل والرسائل أشهراً ، والملك الصالح في معتقله لا يكاد يجد كفاية من الطعام والشراب وراحة الحبس . ولا يكاد يخلص إليه شيء من أساء ما يجري وراء أسوار القلعة . فلولا ما تحاول شجرة الدر أن تقدم إليه من أساب التسرية والمسرة ، ولولا ما يسمع من حديث صاحبه الهاء رهير . وما يرى من مظاهر إحلاص الطائفة القليلة من

الممالك الدين صحوه إلى معتقله - لصاق بحياته فزهقت

نفسه

”

وافتمد ممالك الأمير في الحصص ذات صباح صاحبهم
بيدرس فلم يحده . فانامهم القلق وطوا الطول ؛ ودرى ممعيه
الملك الصالح فراد قلقاً وهماً ، وكانت جهان ماشطة الأميرة
شجرة الدر أشد الجميع قلقاً وأكثرهم همّاً ، فلم تطعم شيئاً مد
نلعها البأ وانطوت على نفسها حريية دامعة العين لا تحف إلى
خدمة ولا تحب بداء فرد واحد من هذه الأسرة الملوكية التي
أحيط بها في هذا المعتقل كان يدوهادئ النفس مطمئناً كما
لا يعيه شيء من عياب ذلك المملوك النازل ولا يهكر من
أمره في شيء . تلك هي شجرة الدر

ورفعت جهان عيبيها إلى مولاتها وهمت أن تقول شيئاً ثم
أمسكت وطأطأت رأسها في انكسار وحر ، وأحست الأميرة
ما يعتلج في نفس حاريتها فأدركتها رقة وهمت أن تقول لها شيئاً
ثم أمسكت كذلك . وتدابرتا فصت كل منهما إلى طريق
وعلى شفتيها كلام لم تسمعه أذنان

ومصت أيام قبل أن يعود بيرس فتطمش الحواطر وتهدأ الطول .
ولكن بيرس مد عاد من عييته تلك لم يتحدث إلى أحد ولم يحاول

أحد أن يتحدث إليه أو يعرف فيم كان عيابه ولم عاد . . .
وهذا وحيب القلوب إلا قلباً واحداً كانت تتوزعه الطون
والأوهام ، ذلك قلب حهان ماشطة الأميرة ، فلم تكذ تطمش
على سلامة صاحبها حتى أحد لها المكر مداهب أخرى من
القلق والريبة وطلت به طون كل أنثى ممن تحب
وكأنا أحست شجرة الدر بما يعتمل في نفس حاريتها
فقال تاسمة

— ليهك يا حهان عودة بيبرس موفقاً من سفارته ، وإله
الحقيق بأن يؤدي عاجلاً ما عليه من الثمن قبل أن يططر بأميته
العالية ويجمع شمله ممن يحب ، في دار على الليل
قالت حهان وقد سرى عنها ما بها وروت على شفيتها
ابتسامة رصا واطمئنان

— شكراً يا مولاتي ، إني ويبرس حليقان بأن سدل دما
في سبيل مرصاتك ومرصاة مولانا الملك الصالح

في مساء ذلك اليوم كانت امرأتان حالستين وجهاً لوجه
في عرفة قد حلت إلا مهما ، يتبادلان الحديث في همس
قالت إحداهما

— قد حاعنى النبأ يا حاتون بما تم عليه العهد بين روحك

الناصر والعاقل سيف الدين ، وإن نجم الدين لأخوك يا عاشورا ،
وما أظن نفسك تطيب بأن يسلمه روحك إلى أخيه العادل
فيسلمك دمه أو يلقى به في حب القلعة حتى يموت صبراً .

قالت صاحبها

— نعم ، ولكن من أين لي أن يقتنع الناصر بما أدعوه إليه ،
وقد وعده العادل بأن يكون له عرش الشام إذا أسلم إليه أخاه ،
وإن الناصر — كما تعلمين — لحريص على أن يبلع هذه المنزلة .

قالت شجرة الدر

— وترين العادل أهلاً لأن يبي له عما وعد ، فأني له ذلك
وليس له اليوم سلطان على الشام وإنما هي تحت يد الصالح
إسماعيل ، فليستحلصها العادل من يد صاحبها قبل أن يعد
بها الناصر ، وإلا فاتها موعدة إلى غير وفاء !

فأمسكت عاشورا حاتون روحه الناصر لحطة تفكر ، ثم

قالت

— وماذا يعزى الناصر باطلاق سراح نجم الدين وليس في

يده ما يؤديه إليه ثمناً لحريته ؟

قالت شجرة الدر

— وهل رأيت أحاك الصالح أهلاً لأن يكتسب ما وعد ؟

فسيستحلص الشام من يد الصالح إسماعيل ، وسيكون له عرش

مصر ، وتحتج في يديه السلطات ، وإنه حيثد لخليق بأن
يتحقق للناصر مأمله ويقاسمه العيمة ، فتكون لنا قلعة الجبل ،
ويجلس الناصر على عرش بني أمية في دمشق

سرحت حواطر عاشورا حاتون وعلتها على رأبها أمانى الملك
والسلطان ، واطمأنت إلى ما وعدتها شجرة الدر ، فهصت
تحاول مع روحها الناصر تديبراً لاطلاق سراح أحيها الملك
الصالح نجم الدين

وانتصف رمضان ولم يرل نجم الدين حيساً في قلعة الكرك ،
لا يكاد ينشق روح السيم أو يرى وحه السماء إلا أن يادن له
رريق حارس الباب ، فلولا ما يسرى عنه من حديث روجه
شجرة الدر ، ومن أطفأ أحتة عاشورا حاتون روجه الناصر ،
لهلك عمأ .

وهص الأمير دات مساء لصلاة العشاء ، فلما أدى الفريضة
وصلى التراويح جلس في مصلاه يذكر الله ويدعو ، وعلى مقربة
مه حلست شجرة الدر صامته وقد تعلقت به عباها لا تكاد
تطرف وإن رأسها ليموح بما فيه من حواطر ، وكان الأمير
يتلو « قلما يا ناركونى برداً وسلاماً على إبراهيم »
فانتسمت شجرة الدر وقالت

— برد وسلام ، وروح وروحان ، وحة نعيم ا

وكف الأمير عن التلاوة ورفع إليها عييه . واستطردت
 — فهل ذكرت يا أميري أنا من هذه القلعة في البلد الذي
 أعدت فيه البار لإبراهيم فلم تكن عليه إلا برداً وسلاماً ، وباء
 أعداؤه بالحدلان ١

فاستنشر الأمير وقال باسماء
 — نعم ، فليت كل بارتشب للعدوان في هذا البلد تحور
 برداً وسلاماً ويؤم المعتدون بالحدلان
 قالت

— لعل الله أن يستحيب لك . فهل ذكرت إلى ذلك أمها
 ليلة القدر سلام هي حتى مطلع الفجر . لأنها ليلة السابع
 عشر من رمضان ١

فابسطت نفس الأمير وقال في شرواطمثنان
 — لك الله يا أميري ، فلولاك
 وسمع طرقاتاً على الباب فأمسك . ودخل حاحمه يؤدبه بمقدم
 ابن عمه وآسره الناصر داود
 وأطلق سراح الأمير مند الليلة ، ليأخذ طريقه إلى مصر
 فيستخلص عرش الأيوبيين من يد العادل ويدع للناصر عرش
 الشام ويصف الحراج
 والتأم حينئذ الملك الصالح نجم الدين بعد شتات وسارع

إليه حنده من كل صوب . ومضى في طريقه فلم يتوقف حتى
بلغ العريش ، فأقام قليلاً يتأهب للمرحلة التالية ، ثم استأنف
مسيره إلى بلبيس

وحقت الهزيمة على العادل فاقتيد أسيراً إلى قلعة الحبل ،
وحلس الملك الصالح نجم الدين أيوب على عرش أبيه ودانت
له البلاد . وبلغت شجرة الدر ما كانت تأمل وقاسمت روحها
المحد والسلطان . واهتمت الملايين باسم أم حليل روحه الملك
الصالح أيوب

وفسد ما بين الناصر والملك الصالح بعد أن بلغ العرش .
فحرج معاضاً له وهو يعرض بنان الدم . وعاد إلى إمارته
التصغيره في أرض اللقاء . لم يطمر عرش الشام ولا عرش اليمن !

٨

— ماذا تقول يا حسام الدين
— هو الحق يا مولاي ، فليس في حراة الدناير إلا دينار
واحد ، وليس في غيرها من الخزائن إلا ألف درهم ذلك كل
ما بقي في حراة الدولة يا مولاي
قال الملك معيظاً حقاً لا يكاد يصدق ما سمعته أدناه
— انظر جيداً يا حسام الدين . فقد كان في حرائنا مند

قريب يوم مات الكامل ستة آلاف ألف دينار (ستة ملايين)
وعشرون ألف ألف درهم (عشرون مليوناً) . فأين يذهب كل
ذلك في بصة عشر شهراً ؟

قال صاحب بيت المال

— ذهب كله يا مولاي إلى بيوت أصحاب العادل ، وقد
رأيت عمال الحراة لعهدده يحملون المال إلى أصحابه في الأقباص
على رءوس الحمالين

— إذن فادع لي كل من تعرف ممن ناله شيء من مال
السلطان لندبر أمرنا وأمره

ومضى يومان . والتأم في القاعة الكبرى من قصر القلعة
مجلس حافل يصمم عديداً من الأمراء والقضاة ورؤساء الحند
ومقدمي المماليك وكل دى حاه ومال من بطانة العادل ،
وتوسط الملك الصالح المجلس ، فدار يعينيه في وجوههم فرداً فرداً
قل أن يتوجه إليهم بسؤاله في لهجة التأنيب والملامة

— لماذا خلعتكم سلطانكم وكان له في أعماقكم حق الطاعة !
ونظر المختمعون بعضهم إلى بعض كأنما يعجبون أن يؤنبهم
على أن أتاحوا له لمخلع أحبه أن يرتقى إلى العرش ، ولكهم كان
لا بد أن يحيبوا . فقال قائلهم

— قد خلعباه لأنه سعيه لا يحس تدبير الأمر ولا سياسة الملك !

قال الملك ناسياً

— فهل علمتم وفيكم الفقهاء والقضاة وأصحاب الرأي أن
نصرف السفيه بعدد ١ فردوا على الدولة ما أحدثتم من يده . إذ
كان السفيه لا يملك أن يهب ولا أن يشتري ويبيع ١
وعاد المجتمعون يطرع بعضهم إلى بعض ، ثم أدعوا راصيين
أو مكرهين ، وأحصى الملك ما ردوا إلى الخزانة من المال ، فإدا
هو قد بلغ ثمانمائة ألف دينار . وألى ألف وثلاثمائة ألف درهم

* * *

قالت شجرة الدر

— بلى ، قد أدعوا يا مولاي لأمرك وأعطوك مقادتهم .
وكانوا من قبل أصفياء العادل وبناته فانقصوا عنه حين زال
عنه الخاء والسلطان فلا يملك لهم نفعاً ولا مصرة ، وإلى لأحشى
هؤلاء الكرد أن يحامروا عليك كما حامروا على أحيك من قبل
وكانت في أعناقهم له البيعة . وهؤلاء أساء عمومك في الشام
لا يريدون أن يدخلوا في طاعتك راصيين فلا يرال فيهم من
يحاربك طمعاً في الاستقلال مما تحت يده من بلاد الدولة ،
وإن مهم لمن يستنصر بالصليبيين ليكسر شوكتك ويهل جندك ،
وقد رأيت يا مولاي بلاء هؤلاء الترك من مماليكك في حرب العدو ،
فإن شئت كان لك جيش مهم لا يثبت له جيش في الأرض ،

وثبتت دعائم ملكك فلا تخشى من بعدُ تمرد الأيوبيين ولا
انتقاص الكرد

قال بجم الدين

— نعم الرأى ما أشرت به يا أم حليل ، وسأشرع مد
العد فى بناء قلعة بالحريرة تتسع للآلاف من المماليك يكونون
للدولة سداً وقوة

ولم يتمهل الملك فى تنعيد ما اعترم ، فبنى قلعة الجزيرة
واتحد له ثمة قصرأ ، وحشد فى برج القلعة من المماليك جيشأ
دا عدد وقوة ، وحلهم طبقات ورفقأ على كل فرقة منهم مقدم
من حاصة ممالكه يتولى أمرهم ويطر فى مصالحهم . وأقطع
هؤلاء المقدمين أرسأ ورتب لهم ألقأاً ووطائف ومسحهم سلطنة الأمراء
وقوى شأن الترك فى الدولة بقدر ما صعب شأن الكرد ؛
وأثبت جيش المماليك قوته ونأسه فى عدة معارك مطهرة .
وبررت أسماء الأمراء . فارس الدين آق طأى . وركن الدين
بيرس ، وسيف الدين قلاوود ، وعز الدين أيلك الحاشكير ،
إلى عشرات من الأمراء داع لهم صيت وحاه وكانوا مد قريب
أرقاء فى يد الحاس يساوم عليهم بالمال واختفت أسماء الأمراء
العظام من بى أيوب فلا يكاد يدكرهم ذاكر وكان لهم الجاه
والعز والكرامة ١

وثبتت دعائم الدولة وقوى شأن الملك الصالح نجم الدين
أيوب . لولا بعض القس التي يتيرها أمراء الأيوبيين في الشام
وفلول الصليبيين على الساحل

وجلست شجرة الدر في شرفة مطلة على النيل من قصر الحرية
تسرح الطرف على امتداده . فترى الحيل مثقلة بأحمالها
تمايل مع السيم ولها حميف يتحارب . وشمس الأصيل مبسطة
على صفحة الماء في النيل وقد امتدت على شاطئيه المزارع
الخصر الناصرة مرصعة بألوان الزهر ، والصحراء الممتدة إلى
حيث لا يدرك الطرف لها عاية ولا نهاية وقد قامت عليها
الأهرام منتصبة شامخة تهراً بأحداث الرمس فكأنما أحدث
هذه الماطر العاتية للأميرة ذكرى بعيدة . فتعمست نفسها عميقاً
وراحت تدبدر بأعنية عتيقة قد طال بها العهد .

— حدا دور على النيل

وتحولت عن الشرفة قليلاً لترى بين يديها ماشطتها جهان
قد سرحت نظرتها إلى بعيد وفي عيها طمأ وحين ، وتدكرت
الأميرة موعداً بينها وبين الحارية قد طالت عليه السوء .
فأحدثتها على الفتاة رقة ومالت عليها تربت كتفها قائلة

— ليهلك يا حهان ما بلغ فتاك من المجد والخطوة لدى
مولاه . وقد حق له ولك تما بدل وما صرت على الوفاء أن

تقطعا ثمرة هذا الحب . فاذا انقضى هذا الشهر وحان موعد
وفاء النيل فسأشهد ويشهد الملك رواف حاريتة حهان على الأمير
ركن الدين بيبرس ، وتكون لكما دار على النيل . .

فاعرورقت عينا الفتاة ومالت على يد مولاتها تقبلها وتبيلها
بالدمع شاكرة لما حلتها وحت فتاها من النعمة

ولم تم الفتاة مد تلك الليلة إلا على ذكرى ولم تستيقظ
إلا على أمل . وأزقتها الرحاء الداني كما كان يؤرقها اليأس
البعيد ، فانت تعد الليالي وترقب القمر في سراه وتستنقذ ماء
النيل في محراه تحت شرفة القصر عن موعد الوفاء

ووفى النيل في ميعاده ولكن المقادير لم تف للفتاة بما وعدت ،
فقد كان القصر والقلعة والمدينة كلها يوم وفاء النيل في حزن
شامل . وقد لبس الجميع البياض حداداً على موت الملك المصور
حليل اس الملك الصالح نجم الدين أيوب . واحتحت شجرة
الدر في مقصورتها تكى حتى تشرق بالدمع على وحيدها
الذي كانت ترقب له أعظم الآمال !

وبكت حاصته حاتون ما بكت أسفاً على ما كانت تأمل
أن تلعه من الخطوة والسلطان يوم يلعب الملك الصغير أشده
ويجلس على عرش أبيه !

وبكت حهان الماشطة حتى قرح الدمع أحماها لأن القدر

لم ينسأ في أجل الصبي حتى يبي الليل وتوف إلى فتاها الذي
ترقب مواعده مند سين .

وبكى أمراء الممالك لأن مولاتهم التي يضمرون لها الحب
والولاء ويدبون لها بالطاعة قد مات وحيدها الذي كانت تهينه
لولاية العهد . وسيكون ولي عهد المملكة من بعده أميراً آحر من أمراء
بني أيوب لا تربطهم به آصرة وليس لهم عليه يد تقتضيه لهم الوفاء .
وحجم على القصر والقلعة والمدية كلها حو من الحر والآسى
والكآنة

قالت شجرة الدر

— ليس ما بي والله يا مولاي أن حليلا قد مات وحرمت الأس
به . ولكي أحشى على هذه الدولة أن يفرط عقدها إذا آل
الأمر بعد عمر مديد إلى ولدك الأمير عيات الدين وليس فيه
كياسة تؤهله لولاية العرش

فتأوه بحم الدين وحصره بثه . فأطرق لحظة يفكر ثم رفع
رأسه وهو يقول

— لا تذكرى عيات الدين للعرش يا أم حليل . ها أراه
يصلح له أو يستقيم أمره . حسه أن يطل في حصص كيفاً أميراً
على ما يليه من بلاد المشرق ، فإني لأحشى إن نارعتة نفسه

، العرش أن يسعى تقدمه إلى حيه ويحترم في الشاب !
 قالت شجرة الدر

— مولاي ، ولكن تراث الحالدين من بي أيوب أمانة
 بين يديك . فهلا عهدت إلى أحد من أهلك يحفظ الأمانة
 عندك ؟

قال الملك وقد بدا في عييه انكسار وحر
 — فقد عهدت إليك يا شجرة الدر أن تسلمى البلاد للحليفة
 من بعدى . فلا يتارعها الأمراء حتى تذهب قوتها وتطأها
 حيل الصليبيين
 قالت مواسية

— عمرك الله يا مولاي حتى تنحب ولياً للعهد تشئه على
 عيبك وتبيئه لحمل أمانتك . ويمتد بك العمر حتى تراه
 يحكم باسمك فيحس الحكم والسياسة . إنك يا مولاي لم تزل
 في ربيع الحياة . وإن الله لأثر بك !

٩

جلس الأمير ركن الدين بيبرس ساهماً قد تورعه الفكر
 وصاقت به مداهمه ، أكلما حيل إليه أنه قاب قوسين أو أدنى
 مما يأمل تنكر له خطه واعتصت سبيله المقادير ،

إنه لم يزل مند سين يرقب ذلك اليوم الذى يزف فيه إلى
 وفاته ليسعد إلى حوارها فترة من العمرى دارعلى الليل تعنى له
 ويستمتع إليها هائثاً نشووا ، ولكن ذلك اليوم لا يريد أن
 يأتى . ولعله لا يأتى أبداً . فكلما بدا له أنه قريب قريب على
 مد يده أو على مد عينيه ، ماحت من حوله الأحداث فاحتملته
 أمواحها إلى بعيد لا تناله يد ولا تمتد إليه عيان ، فلا
 يرال مقللا مدبراً بين الرحاء واليأس . وفئاته المحبوبة من
 دونها أسوار وحب . قد حالت عيرة الأمير وتقاليده القصر
 بينه وبينها فلا يكاد يراها أو يتحدث إليها ويستمتع إلى حديثها
 إلا فى الندرة البادرة وفى العام بعد العام

وإنه لى مجلسه داك ساهماً يفكر إاد مثل بين يديه الأمير
 عز الدين أبليك يدعوه إلى مقابلة شجرة الدر

وحف إلى مجلسها وفى نفسه أمل ، وكات - لم ترل -
 فى بياض الحداد على وحيدها المنصور حليل ، وقد التثمت بفصل
 ردائها لا يكاد يدوم من وجهها إلا عيان ساحرتان فيهما أمر
 واحب الطاعة . ووقف باب مقصورتها مستأنياً حتى تأذن
 له ، ثم دخل وكات حهان إلى حاب مولاتها

قالت

- لأمر ما دعوتك يا أمير ركن الدين

ثم نقلت عيبيها بين الأمير وصاحته ، ولكن الأمير
وصاحته مما عليهما من الوجد لم يكونا يريان أو يسمعان
وانتسمت الأميرة واستأنعت

— قد كنت أرحويا بيرس لو أن القدر قد وفى لى ولكما ،
ولقد حملت يا أمير كثيراً من هم الدولة ، فليست أكلفك إلى ذلك
أن تحمل هم من نقي ومن مات ، فان شئت حلوت عليك
عروسك عدأ أو بعد عد إن طاب لك التعجيل

رورف قلب حهاى بين أصالعهها رورة الطائر ، وأنعص
بيرس رأسه حياء وهو يقول فى تلعم

— لارلت ولاية العمة يا مولاتى ، وما كان لى ولا لحهاى أن
يلتمس أسباب المسرة ولا تزال فى القلب حشرات على فقد
مولانا الملك المصور حليل !

وبرق الدمع فى عيى الأميرة . وعص بيرس على شمته ،
وطأطأت الفتاة رأسها فى الكسار

قالت شجرة الدر

— فليكن رفاقكما إدد عداة مقدمك مطعراً من حرب
صاحب دمشق . ويومئذ أسأل مولاي الملك الصالح أن
يوليكن إمارة من إمارات الشام تتمتع فيها أنت وعروسك حهاى
مما تأملان من العمة والسلام ، حراء ما بدلت ، وما صبرت

قال بيرس هادئاً

— في طاعتك يا مولائي وطاعة مولاي الملك الصالح
يضيّب لي أن أدلّ دمي
ثم حيا واتحد طريقه إلى الباب وبين قلبه وعقله صراع
تكاد نظرة عيسيه تكشف سره !

٤

وتهباً الملك الصالح للحروح يحيشه إلى الشام ليقصى على
ما بقي من فتنة أصحاب المطامع ويوطئ لعرشه ، وصحته شجرة الدر
وريرة ومشيرة ومؤسسة . وما كان له أن يحليها في القاهرة ويمضي
إلى سمر عeid . وكان مقدم حيشه فحر الدين بن الشيخ ،
يؤارره من أمراء الجند عر الدين أيلك ، وفارس الدين آق طاي ،
وركن الدين بيرس . وسيف الدين قلاوون ، وترك في القاهرة
نائه حسام الدين مفوضاً في الحكم حتى يعود

وتوالت هراثم العدو وتهافت معاقلهم معقلا وراء معقل ،
وأوشكت أن تطهر الشام من فلول المتمردين على عرش الملك
الصالح أيوب

ثم حاءه الريد ذات صباح برسالة ، فلم يكديفص حتامها
حتى حلّى الميدان وأرمع المآب . وترك على دمشق نائه الصاحب
حمال الدين بن مطروح

وبات الملك على الطريق إلى مصر متعاً مهوِكاً قد هاحت
به علة دات الصدر إلى قرحة في مأنصبه لا تزال تدي

قالت شجرة الدر مترفة

— متعك الله يا مولاي بالصحة وأنعم بك ! فهلا أحررتني

ماذا بك ؟

قال متحلداً

— أراي محير يا شجرة الدر ما بقيت نحاسي . وإنما هو ما
يعتادني من دات الصدر ومن تلك القرحة إذا طرقي هم ، وقد
كست أطس أولئك الصليبيين قد ثابوا إلى الرشد بعد ما نالهم
من المرائم في كل ما حاصوا من المعارك . حتى حاءني الريد
عهم اليوم سأ حديد . فقد أقلعوا من حرية قرص مد قريب
على قصد دمياط على رأس حيش لم يجتمع لهم مثله من قبل
قالت

— هو عليك يا مولاي . فوالله لا يكون إلا ما تقر به عيأ .
ويوعدون بالحسرا في حملتهم هذه كما ناءوا في كل ما سق من
حملاتهم العاشمة ، وإن دمياط لأمع مما يؤمل هؤلاء الصليبيون .
وإن بها من الحد والعتاد وأسباب الحرب ما يدفع عنها ويرد
إلى الحر كل من تحدته نفسه باقتحامها ، وحسبك من فيها من
بي كنانة الأجداد

برح الداء بلويس التاسع ملك فرنسا حتى أشق على الموت
 وحار الأطباء في علاجه . فانه لى عمرة من عمرات المرض
 إذ ألقى إليه أن يقسم إن يرى من دائه ليقوم عن رأس حملة
 صليبية عظيمة إلى المشرق قرباناً إلى ربه وشكراً لعمته . ثم لم
 يلبث أن يرى فأحد في تنعيد ما اعترم . فجمع جيشاً لم
 يجتمع مثله قط . فأبحر به من مرسيليا على ألف وثمائة سفينة
 قد اجتمعت له من بيرا، وحبوة والسدقية وغيرها من بلاد
 الساحل . واتحد سبيله إلى مصر

وتلبث الجيش فترة في قبرص حتى يستكمل أهنته قبل أن
 يستأنف سيره إلى دمياط ، وبلعت أساؤه الملك الصالح أيوب ،
 فأسرع عائداً إلى مصر ، واتحد المصورة مركزاً للقيادة العامة .
 وبعث بالأمير فخر الدين بن الشيخ إلى دمياط على رأس جيش
 كبير لتدبير أساب الدفاع

ولم تكن هذه أولى حملات الصليبيين على دمياط ، إذ كان
 موقعها على مصب المرع الشرقى ليليل معرباً لهؤلاء العزة على

قصدها ليركوا الليل منها إلى القاهرة فلا يعترض سبيلهم شيء
 فيما يرمون دون امتلاك البلاد، على أن دمياط كانت من الماعة
 وعظم الاستعداد بحيث لا يسهل على العدو أن يقتحمها دون
 أن يتعرض للهلكة وبعد حصار طويل يستمد قوته وجهده ،
 وقد ثبتت لحصار الصليبيين دات مرة مند بصع عشرة سنة
 فلم يستطيعوا أن يقتحموا أسوارها إلا بعد سعة عشر شهراً ، ولم
 يكن لها يومئذ من المقاتلة قوة دات شأن . فأنى للصليبيين
 ما يأملون منها اليوم . وفيها من فيها من الأمراء والحند وأنطال
 بى كانة ، وعلى رأس قوات الدفاع الأمير فحر الدين بن شبح
 الشيوخ^٩

كان الأمير فحر الدين هوكل من نقي من دوى الحسب الرفيع
 من أمراء دولة بى أيوب فى مصر . وكان أميراً مهيباً له وقار
 وسمت وفيه أريحية وبحوة . وله مشاركة فى العلم وماض فى
 الجهاد ووجاهة بين الناس ، وكان إلى ذلك كله أثيراً لدى
 الملك الصالح ، إدا كان أحاً بالرصاع لأبيه الملك الكامل ، وله
 عليه يد إدا هياً له السبيل لاعتلاء العرش بعد حلع أخيه العادل ،
 وقد أدته مكانته تلك من الملك فلا يوصد دونه باب ولا يعترض
 سبيله حجاب . وكان يتمتع من الجاه والخطوة لدى شجرة الدر

بمثل ما يتمتع به لدى مولاهما . إذ كانت تقدر له بلاءه في خدمة الدولة وتعرف مكانه . فلما برح الداء بالملك الصالح واقترب مواعده ، لم تجد شجرة الدر حوها من الأمراء من تؤهله صفاته لمؤازرتها فيما تصطلع به من الأعماء غير الأمير فخر الدين . فكأنما أرادت أن تمهد له السبيل إلى أمل تأمل أن يلعبه في يوم قريب ، فأشارت على الملك أن يولييه قيادة الجند على أن خطوة الأمير فخر الدين لدى الشعب ، ولدى الملك والملكة . قد أثارت غيظاً كطيماً لدى أمراء الممالك ، فتداعت أمانيهم . ولكهم كانوا من الولاء والطاعة لمولاهم ومولاتهم بحيث لا يملكون إلا الرضا والتسليم ، وكأنما أحس فخر الدين بما يصطرح حوله من نوارع الخير والشر . فامتطى هرسه على رأس الجيش إلى دمياط وفي نفسه قلق وريبة ، لا يدري أين تنهى به المقادير ولا كيف تكون عاقبة أمره وأمر الدولة ، وهذه صحة الملك ترداد كل يوم . سوءاً فلولا ثبات حمانه وقوة نفسه لأنتهز المرص في فراشه لا يملك أمراً ولا سبباً وحقت على البلاد الهزيمة !

وبرل العدو على الساحل ، فما كانت إلا كرة بعد كرة وتقهقرت قوات الدفاع وألقى الرعب في قلوب الحامية فلم تثبت لهجوم المربجة

وأحلت معاقبتها ، وحاس العدو حلال الديار يهتك ويفتك
ويسفك ، ومضى الجيش المصرى على وجهه مولياً أذاره لا يقف
فى سبيله شىء ، ووراءه الآلاف من أهل المدينة رجالاً ونساء
وأطفالاً يتحطمهم الموت على الطريق وقد امتلأت الأرض
بجثث القتلى وأحساد الخرحى تطؤها أقدام الفارين وتحطمها
سبابك الحيل ، واستولى الفرنجة على دمياط بلا كبير عناء ،
لم يحمها نوكرانة ولا جيش فحر الدين !

وبلع الفاروق المصورة ، وشاعت أباء الهريمة القاصمة
وتناقلتها الطير إلى مختلف البلاد . وارتاع الملك ولكنه لم يفقد
ثباته . فأمر بأمراء الحشد فعلقوا على الأعواد ، وشق حمسين
أميراً من بنى كنانة . وأمر أن يحمل إليه رأس الأمير فحر
الدين

قالت شجرة الدر

— وماذا كان يملك فحر الدين أن يفعل يا مولاي وقد
احل نوكرانة وانقص عنه عسكره ؟

قال الملك

— كان يملك أن يثبت على فرسه وحيداً حتى يدركه

الموت !

قالت

— ذلك حق يا مولاي . ولكن من تراه يقوم مقام فخر
الدين من أمرائك إن هلك . أفلا يشفع له بلاؤه في خدمة
الدولة مد كان وما حاص من المعارك الدامية ؟
قال الملك

— فقد وهبت لك دمه يا شجرة الدر !

قالت

— عمرك الله يا مولاي حتى تقتضيه ثم هذه المنة
ولكن الملك الصالح لم يعمر طويلاً حتى يشهد بلاء فخر الدين
في دفاع العدو ، فمات في ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧

٥

العدو على الأبواب قد ملك ناصية الطريق ورابطت سببه
في النيل وتوشك حيله أن تظأ أرض الوادي فتحوره من أطرافه ،
والملك مسحى في فراشه قد أعمص عيبيه الاعماضة الأخيرة
فلن يفتحها أبداً . ولم يول عهده أحداً يحمل راية الجهاد من
بعده . وولده الوحيد بعيد في حصن كيما على حدود المشرق
وليس له من الحرم وحسن التدبير ما يؤهله لولاية العرش في هذا
الوقت العصيب . وأمراء بني أيوب في الشام يتاثون توات
الصفدع . يحيل إلى من يراه أنه نشاط وجهاد وما هو من ذلك
في شيء . وكلهم يطمع في العرش وما فيهم أهلية لحمل

تبعات العرش ، وهؤلاء أمراء الممالك لا يرال في دمهم من
 طباع الأرقاء وقد بلعوا مرتبة الإمارة . فان كلا منهم لا يرال
 يطر إلى رميله نظره إلى الرقيق المحلوب ولا ينظر إلى نفسه .
 فأين يبلغ شأن هؤلاء وأولئك جميعاً إذا عرفوا أن العرش قد
 خلا من سيده وأن رب التاج قد مات . وماذا يفعل العدو ولم
 يرل في نسوة انتصاره الأولى .

وأسلت شجرة الدر أحفان الملك الشهيد وشدت لثامه ومدت
 على وجهه العطاء . ثم أعلقت من دونه الباب وأوت إلى حلوتها
 تفكر

امرأة في رويق الصبا قد فقدت رحلها
 ملكة ذات سلطان توشك أن ترل عن العرش
 قائد في المعركة قد أحبطه ويوشك أن يتحلى عنه عسكره
 كل أولئك شجرة الدر . الرجل . والعرش . والنصر .
 ثلاثة أهداف بعيدة يجب أن تحرص على بلوعها

وازدحمت الصور على عينيها متتاعة لا تعرف ما تأخذ منها
 وما تدع ، واحتصرها الماضى القريب والعيد ، وذكرت فقيدتها
 الصبي الملك المنصور حليلاً آه لو كان اليوم حياً ! وتذكرت
 إلى ذلك حديث أنى رهرة المعجم « ستلعين به العرش
 يا مولاتى ، وتهتف باسمه الحلائق في شرق الأرض وعربها »

ولكن خليلاً قد مات . أفتباح لسوء الشيخ أن تتحقق على وجه ما فتبلغ العرش لأنها أمه ، وتهتف باسمه الخلائق لأنها تحكم باسمه ٢ . أدلك ما كان يعنيه الشيخ ٣ وماذا يجمع أن يكون ٤
 لأنها امرأة ٥ فقد كانت سيدتها ملكة نرير وسيدة العجم فاطمة خاتون بنت طغرل السلجوقي . امرأة ٦ فأحسنت تدبير الملك والسياسة . لم تمنعها أبوتها أن تكون ملكة . ثم لم تمنعها الملكية أن تكون أنثى ، فحطت نفسها إلى السلطان حلال الدين بعد أن انفصلت عن روحها أرنك

أين تذهب بها حواطرها الساعة ٧ ما لها ولهذا الحديث وإن عليها أن تدبر الأمر قبل أن يدرى العدو بمهلك الملك فيشتد أثره ثم تكون الطامة ، وتفقد الروح ، والعرش ، والمملكة جميعاً ، ومن يدرى ٨ فقد تفقد حياتها ، أو تفقد حريتها . فتعود حارية كما بدأت يساوم عليها في سوق الساياء وأجمعت بينها على أمر . فبعثت تدعو إليها الأمير فحر الدين

— هذا العدو قد تحاور باب الدار يا فخر الدين ولا ملك على العرش ، وقد دعوتك لترى رأيك قبل أن يعرف العدو وتقع الكارثة

— الرأي ما ترى يا مولائي ، وإنك لأعلى عيماً وأحبر

بسياسة هذه الدولة وقد عاصرت أحداثها بصع عشرة سنة ،
ولقد فقدت مصر ملكها الشهيد ولكها لم تفقد حسن تدبير
شجرة الدر

— ماذا تعنى يا فخر الدين ؟

— لست أعنى إلا ما قلت يا مولائى ، فإني لأهل لاحتال
تعاتها حتى تحلى هذه العمة

— ولكنى امرأة يا أمير ، من أين لى أن أبلغ هذه المرة ؟
— وهل كانت الصاحبة صفية حاتون ست الملك العادل
اس أيوب إلا امرأة ، وقد حكمت مملكة حلب ودرت أمرها
فأحسب التدبير والسياسة

— ولكن صفية حاتون يا أمير كانت تحكم باسم حفيدها
الصنى صلاح الدين

— وباسم ولدك الشهيد الملك المعظم خليل تجلسين على
عرش مصر وتحكمين ؟

اعرورقت عينا المائكة الشاة وقالت فى صوت يحتلج

— ولكن خليليا يا فخر الدين قد مات ، لم يجلس على
العرش ولم يوص به لأحد من بعده

— وباسم من كانت تحكم يا مولائى فاطمة حاتون ست
طغرل السلجوقى على عرش تبريز ، ومن قبلها حدثها تركان

حاتون على عرش حواررم وحراسان ، وهل كانت السلطنة
رضية ملكة دهلي في الهند إلا امرأة وقد استقلت بالملك بصع
سنين ؟

— ولكننا في مصر يا أمير ، لا في الهند ولا في حراسان ،
حيث نجد من أمراء آل أيوب أو من أشياعهم من يقول في
غير تعريض هل كانت شجرة الدر في قصر الملك الصالح إلا
حارية ارتقى بها السعد حتى بلغت منه ممرلة الروح وأم الولد .
فكيف تطمع أن تجلس على عرش فرعون ، ويسود يا أمير
ما أفاصت شجرة الدر من برها عليهم وما بدلت للدولة وما تصمر
من بية الإصلاح والخير

— يا مولاتي ! بالله لا تذكرى الآباء والأجداد . من أين
لهم أن يعرفوا من كان أبوك ، فلعله — لو عرفوه — كان أعرق
أرومة من أيوب بن شاذي . وأنى لهم أن يكرؤا عليك حقك
في ولاية العرش وقد جلس عليه كافور مند قرون ، لم يرده عن
هذه الممرلة أنه عد أسود أمي مشقوق الشفة لا يصلح للحمل
ولا للمهبة !

أشرق وجه الماكة بانتسامة رصا ، وهي تقول
— صدق يا أمير . وإن شجرة الدر بما بدلت للدولة

وما تصمر من نية الإصلاح لأدنى مرلة إلى العرش من مثل
كافور ، ولكن

— مولاتى !

— إبنى امرأه دات حجاب يا فحر الدين ، وليس يجمل
نى ولا يسعى لى — بعد الملك الصالح — أن أنرر إلى الرجال
أو أشهد مجلس الحكم والمشورة

— إن أمراء دولتك يا مولاتى ليسدلون عليك الستر العالى
من الإحلال والمهانة . فلو اتحدت أميراً مهم كبيراً لأمائك
لكفأك وجسأك أن يررى إلى الرجال أو تسهدى مجالسهم .
وإن أمره فى البهايه لمردود إليك ومستمد منك . وإن شئت
يا مولاتى كسفت الحجاب بيبك وبينه على شرع الله وسنة
ببيه ..

أنعصت المرأة رأسها من حياء ، ثم رفعت شاحمة الأنف وقالت
فى كبرياء

— فقد احترتك كبيراً لأمائى يا فحر الدين ، إن طاب لك
أن تحمل هذه التبعة .

تعاقبت على وجه الأمير ألوان شتى ، واصطرعت فى رأسه
حواطر حمة ، وحصرته ذكريات وأمانى ، وانهرت أنفاسه فلم يملك
حوافاً سريعاً

واستطردت الملكة

— ولكن علينا قبل ذلك كله يا أمير أن ندبر أمراً وأمر
رؤساء الممالك وأمراء الحمد ، فانه ليدولى أنهم — وقد مات
مولاهم وولى أمرهم — قد يرون من حقهم أن يستشاروا ، وقد
بلغوا من الجاه والقوة مبلغاً يسعى أن يحسب حسابه
قال فخر الدين

— وماذا يعنى هؤلاء الممالك يا مولاتى من ذلك الأمر ،
ولما هم حد وحاشية ، ليس عليهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا !
— بلى . إلهم حد وحاشية ؛ فهل نسيت العدو الذى
يترص بنا يا أمير ؟ فان علينا أن نسترصى هؤلاء الحمد قبل أن
نقتصمهم حق الولاء والطاعة ، لطمئنا إلى صدق بلائهم فى
قتال ذلك العدو

ثم أطرقت الملكة هبة تفكر . وعادت تقول
— وإنى لأحتسب إلى ذلك أن يدرك أولئك الصليبيون ممهلك
الملك الصالح . فيبتلوا الفرصة قبل أن يستتب لنا الأمر ،
ويتوعلوا فى البلاد فلا نستطيع لهم دفعاً ، والرأى عندى
أن نكتم ذلك السأ فلا يدرك به أحد ولا يعرفه العدو حتى
نستطيع تدبير أمراً معه
قال الأمير مرتاناً

— ويمكنك ذلك يا مولائى ؟

قالت .

— لا عليك من ذلك يا فخر الدين . ودع لى تدبير
الأمر كله

واستسر السأ فلم يدره إلا بصعة نمر شجرة الدر . وفخر
الدين ، والطبيب همة الله . والخادم سهيل ثم الأمير
حسام الدين بن أئى على نائب الملك فى القاهرة .

وحط حثمان الملك الصالح وأودع صدوقاً من خشب
الصدل . ثم حمل فى سفينه على النيل إلى القاهرة لا يدرى أحد
من ملاحيا ماذا تحمل . وأرست السفينة على ساحل حريرة
الروضة ، وحمل الصدوق معلماً بأسراره إلى القصر

واستمرت الرسوم فى القصر الملكى بالمنصورة جارية على عادتها ،
لم يتغير منها شئ . مما يألمه الناس : ترفع الكتب والأحكام إلى
القصر ليرى فيها الملك رأيه ، فتخرج وعليها توقيع الملك برأيه
ونخطه ، لا يشك من يراها أن الملك قد قرأها وحرى قلمه
عليها مما جرى

ويعد طعام الملك فى مواعده ويمد سماطه ثم يرفع . لا يشك
من يرى ذلك أن الملك قد أكل طعامه وشرب شرابه .

وتصدر الأوامر إلى الأمراء والقادة ورؤساء الحدد وعليها طابع الملك وحطه . لا يشك من تصدر إليه أمها أوامر الملك الذي يدين له بالولاء والطاعة

ويستأذن عليه من يستأذن من أهله وخاصته وأصحاب الرأي في دولته . فيحرج إليه الخاحب معتذراً بأن الملك متعب ولا يستطيع أن يلقي أحداً

شيء واحد أثار الريبة في نفوس بعض دوى الإدلال من الخاصة . هو كثرة تردد الأمير فحر الدين على القصر مصححاً ومسياً . كأن له وحده الخطوة من دون الأمراء . وكان مند قريب متهماً يطلب الملك رأسه لأنه لم يحسن الدفاع عن دمياط ـ ماذا تعير من الأمر هذا وحطى حتى ليس لأحد غيره من الأمراء في القصر خطوة ولا مكان ٢

وتذكر من تذكر ما كان من مرض الملك وشكواه من دات الصدر وقرحة في المأنص ، ولخط من لخط أن الطيب همة الله يلزم القصر ولكنه لا يكاد يخف إلى عمل أو يغادر ححرته ، وهمس هامس في أذن صاحبه

— أحسب أن الملك قد مات

— بل إني أكاد أستيقن ذلك يقيناً

— فما هذا الكتب التي تخرج كل يوم وعليها توقيع الملك بخطه؟

- علم ذلك عند شجرة الدر وخادمها سهيل . وكلاهما
- كاتب يحبس إمساك القلم
- وتراها تجرؤ^٤
- وم تحاف^١
- ولماذا تحي^١
- علم ذلك عند الأمير فخر الدين^١

١١

ومالت الأفواه على الآذان همساً . تم ارتفع الخمس فصار
حديثاً على الشعاع . وانتشر الحديث حتى سمعه كل دى أدن في
المدية . وسارت به الركبان فلولا التوقيف والمهارة لشخص
الملك . ولولا أثارة من الريب في بعض النفوس ، ولولا ما
يشعل الناس من أساء الحرب — لكان حديثاً على المنابر
وقال الأمير فارس الدين آق طاي مقدم الممالك لأصحابه .
— إني لأنوقع أن يكون صحيحاً ذلك السأ ، لم يجمع إداعته
إلا حذر العدو أن يريد قوة !

قال بيرس

— حذر العدو ، أو حذر الأمراء^٤

قال قلاوون

— وحذر الأمراء أيضاً أفلمست ترى مكانة فخر الدين في
القصر ؟ فكيف يطمئن مثله إلى بحاح تديره لو علم الأمراء ؟
قال أيبك

— وهل يطمع ذلك الحمار الرعديد وقد اهرم أمام العدو
في أول جولة أن يكون له شأن دون سائر الأمراء ؟
قال آق طاي عاباً

— أفتطمع أنت يا أيبك ، تصديقاً لحديث أنى رهرة الدحال ،
ولا يطمع مثل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ؟
فاحمر وجه أيبك ، وقال قلاوون دهشاً

— أنتعى أن فخر الدين يطمع في العرش ؟ لقد أعدت في
الطن يا آق طاي . فأين طوران شاه اس مولانا الملك الصالح ؟
لا كان والله شيء من ذلك وفي أعمادنا سيوف !
قال آق طاي هادئاً

— من أحل ذلك يحرص فخر الدين على إحقاء الأمر .
وما أعدت والله في الطن يا قلاوون ، وإنما أعدد فخر الدين في
الأمم وأسرف في قدر نفسه !

وكأما حتى التركةاية من أمراء المماليك أن يثب إلى
العرش أمير من عبر حلدتهم لا يفوقهم فروسية ولا يفصلهم

تدبيراً وسياسة . فأجمعوا على الدعوة لابن مولاهم . وبعثوا إلى حصن كيفا من يدعو الملك المعظم طوران شاه ليتسنى عرش أبيه . وكان آق طاي على رأس وفد الأمراء إلى المشرق . ومعه رسالة من الأمير حسام الدين نائب الملك في القاهرة

وعرفت شجرة الدر بما اجتمع عليه رأى التركمانية فلم تقاوم ولكنها لم تستكن . إنها لتعرف طوران شاه فتي ضعيف الرأي طياشاً ، لا يحس السياسة وتدبير الملك ، وإنها لتعرف ما كان رأى أبيه فيه فآثر إبعاده عن العرش حرصاً على رأسه . ولكنها إلى ذلك لا تحب أن تعارض ما اجتمع عليه رأى الأمراء ، لأن بها حاجة إلى رصاهم واستبقاء مودتهم . ولا تريد إلى ذلك أن يعرف طوران شاه أن أمراء المماليك كانوا أحرص على تمليكهم من امرأة أبيه ، فترسل إليه رسولا كما أرسلوا إليه ، وليسق رسولها رسولهم لتكون لها بذلك يد عده ، وليدع له على المابرك كما يدعى لأبيه . ولتؤخذ له البيعة بولاية العهد منذ الآن قبل أن يستيقن الناس موت أبيه . فان ذلك كله حليق بأن يمكن سلطانها ويبعد عنها التهمة ، ويهيئ لها الأسباب لتظل قابضة على السلطة تصرف أمور الدولة كيف تشاء ، ومادا يعيها من شحص الملك ما دامت في يديها كل السلطات ، فهي الملكة وإن لم يكن لها عرش ولا تاج^٩

وقدم على طوران شاه رسول الملكة شجرة الدر ، وقدم عليه كذلك آق طاي برسالة الأمير حسام الدين . ونهياً للرحلة من حصن كيما إلى القاهرة على الطريق الطويل الذى سلكه أبوه مد عشر سنين .

وكاد موت الملك لا يرال سراً مطوياً لم يدعه القصر ولم يتحدث به نائب الملك إلى أحد من الخاصة أو العامة ، ولكنه مع ذلك حديث شائع يتردد على أفواه الناس فى شتى أنحاء البلاد لا يؤمنون به ولا يكادون ينكروه وكانت معركة الصليبيين لم ترل دائرة . قد حشد لها الفرنجة كل ما يملكون من قوة وعتاد ، وجمع لها المصريون كل ما يستطيعون من أسباب الدفاع والمقاومة ، وكأنما كان سقوط دمياط فى أيدي الصليبيين وما نال أهلها من القتل والتشريد والمذلة حافزاً لكل دى يدين أن يتهياً لحمل سلاحه للدود عن حياته وعرضه وحماته ، وكأنما كانت هزيمة فخر الدين فى تلك المعركة شرارة ألهمت دمه فأخذ يعد عدته للتأر ويستجمع قوته للوثئة

وأشقت شجرة الدر ليلها ونهارها ترقب حركات العدو والميدان وترسم الخطط للإيقاع به وإحباط مسعاه من غير أن

تبدأ هجوماً عليه أوتهى له فرصة لاستئناف الرحف . وتألفت فرق من الهدائيين تنقص على معسكر العدو على امتداد الساحل وفي هدأة الليل أو في قبولة النهار فلا ترال تجدل القتلى وتحمل الأسرى عشرات ومئات وتحرب المشآت العسكرية . وضاق العدو آخر الأمر بمكانه . فلولا حشيشته أن يكون وراء موقف المصريين مكيدة مبيتة لاستدراجه لاستأنف الرحف غير مثلث وانتصف الشتاء وقلت دحيرة العدو من الأقوات والوقود ، وهمت الأعاصير على سبعة الراسية في الليل فدمرت منها أكثر من مائتي سفينة ، وتناعت عارات الهدائيين حتى حرمتهم هدوء النهار وراحة الليل . وأوشك الحلاف أن يشب بين قادة الصليبيين فيتدابروا وتذهب ريجهم

ثم حاءتهم الأساء مموت الملك الصالح ، فحرحوا في حمية يقصدون المصورة في عدد وعدة . فلم تمص إلا أيام حتى كانوا تحاه المصورة يتهاون لاختيار الحر الصغير إلى المدينة التي اتحدوا المصريون قاعدة للدفاع

وشرع الفرحة يقيمون على الحر معبراً يحنار عليه الحد . فحلاهم المصريون وما أرادوا ، حتى إذا فرعوا منه أو كادوا حمر المصريون خندقاً مثل الهلال عند مهايته ، فاندفع إليه ماء البحر وحرف قاعدته فامهار المعبر وحمله التيار !

وظفقا يقيمون على الساحل أرباحاً من الحشب العليظ
 ليحرسوا مراكزهم ويرقبوا حركات عدوهم ، هـا كادوا يمرعون
 منها حتى انصبت عليها القذائف النارية من أهواء المجانيق
 فردتها أنقاضاً ورماداً على رعوس من فيها من الخراس والحد ،
 وشرعوا يقيمون غيرها فلم يكن خطها خيراً من خط سابقها ، وقل
 الحشب في معسكر الصليبيين حتى لم يبق عندهم إلا السفن
 يستلون ألواحها ليتحدوا منها وقوداً أو ينسوا بها أبراج الدفاع
 ولا تزال « النار الإغريقية » تنصب على معسكرهم من محابق
 نصها المصريون على الساحل المقابل فتلقى في قلوبهم الرعب
 وتوقع في صفوفهم الحلل . ولم يكن للفرجة عهد هذا السلاح
 الناري المبد المهلك . فلا يكادون يرون تلك الكرات
 النارية الهائلة تنهاوى من السماء على رعوسهم شعلا
 وحمرا حتى يأخذهم الفرع فيتفرقوا في كل وحه قد ركب
 كل منهم قفا صاحبه ولا يزال الضحايا يهطون عليهم ساعة
 بعد ساعة في الليل أو في النهار يتحطفونهم أحياء أو يتحطفون
 أرواحهم بالمدى والخاص

وأرواحهم المقادير مكاسهم داك يحيط بهم الماء من كل حاب
 فليس لهم سبيل إلى الأمام ولا إلى الوراء . ثم دلهم بعض الرواد
 دات صاح على محاصة في البحر إلى المصورة . فاحتارها

الأمير أرتوا - شقيق الملك لويس - على رأس فرقة من الهرسا
 وحطوا أرحلهم على الساحل ودوى المير
 وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ في الحمام، فخرج معجلاً
 لم يستكمل عدة حربه، ووثب على ظهر فرسه وانطلق على حمية
 للقاء طلائع الحينش العارى ولحقه عن حبيبه وصمة دمعتة
 مد تحلى عن دمياط^١

ودارت المعركة . وأبلى الأمير فخر الدين بلاء حسناً في
 الدفاع والمقاومة . وكان يحايل لعبيه بين طريق السيوف وحه
 شجرة الدر تشجعه وتشد عزمه . وكان مطر الأمير أرتوا في
 تياه الملكية الفاخرة يحاً له أمانى لا ترال تداعيه حلاً في الليل
 وخيالاً في اليقظة مد حديه داك إلى شجرة الدر ، وحال سيعه
 في العدو ذهاباً وحيئة وإلى يمين وشمال وصوب طعة إلى
 صدر الأمير أرتوا، ولكن طعة أخرى قد نالته قبل أن يشقى دات
 صدره مصرع عدوه . وتحذل الأمير فخر الدين على الثرى
 وبها عريمه، وعسل عاره بدمه . وحلا الميدان من بعض فرسانه^١
 واندفع الأمير أرتوا وفرقته إلى المدينة، ودارت المعركة في
 الشوارع . بالسيف حياً وبالعصى وقطع الحجارة تتساقط
 عليهم من أسطح الدور والنوافذ . واشترك الساء والأطفال
 والشيوخ في المعركة وحباً لوحه أو من وراء الأبواب وحلف

'ستار الحدود . وظلت طليعة العراة تتقدم لم يشها ما حلفت
وراءها من قتلى وحرى . حتى بلغت ساحة القصر ، وكانت
فرقة الحرس برياسة الأمير ركن الدين بيرس مراطة على
الأبواب . وكانت شجرة الدر ترقب المعركة من النافذة بقلب
واحف وقد وقفت إلى جانبها فتاة مورعة القلب بين مولاتها
وبين الطريق قد راعت عيائها فلا تكاد تثبت على مطر
وتقدم الأمير أرتوا نحو باب القصر . وهزت شجرة الدر
كتف الفتاة إلى جانبها وهى تقول

— اهتفى به يا حها . أسمع صوته !
وهتفت حها حهرة وعلى مسمع من مولاتها لأول مرة
بالاسم الذى تهتف به كل يوم آلاف المرات فى حلواتها
همساً وفى حين وشوق

— بيرس ! بيرس ! هذا يومك يا بيرس !
ودوى هتافها فى ساحة القصر وصافح أذى فتاها . فرفع
عييه إلى حيث سمع مصدر الهتاف . ثم اندفع شاهراً سيفه
فاعترض سبيل العدو . واندفع وراءه حده . وحال سيفه فى
الرقاب يقصد الصلوع ويشق المرائر ويطيح الهام ويحذل الأبطال ،
حتى فتح ثغرة فى حيش العدو فهدم منها إلى القلب وصوب
رمية إلى صدر أرتوا فحذله . ثم ترحل عن هرسه والسيف فى

يده يقطر دماً وهو يحيل عييه فيما حوله ويمس حوله يطلب
من يبارره ، ولكن جيش العدو لم يثبت وقد تعجندل
قائده ، فتمرق أباديد فى ساحة القصر وقد ركب الحرس بالسيف
فلم يبق منه بقية ١

وكان الملك المعظم طوران شاه فى طريقه إلى مصر قد بلغ
دمشق . وفى ركابه الأمير فارس الدين آق طاي . وعشرات
من مماليكه وخاصته قد عاد بهم من حصن كيفا ليكونوا له
حاشية وبطانة !

وارتدت فلول المربجة إلى مراكزها على العدو الأخرى من
الحر وقد خلعت فى طرقات المدينة ألماً وحسمائة قتيل من
رهرة المحاربين والفرسان . بينهم الأمير أرتوا شقيق الملك لويس
التاسع ، ولولا سيئة القدر للحق الملك لويس بأبيه فى تلك
المعركة هو وأخواه الأميران آنحو وألفونس

وسرحت البطائق فى أحسنة الحمام إلى القاهرة بأحمار النصر ،
فأريت المدينة واستبشر الناس وقويت روح الشعب وداع
بين المماليك مقتل الأمير فخر الدين فأهرع عامتهم إلى داره
يقتسمون ماله ١ .

ووقع الحلل فى صموء الصليبيين بعد تلك المعركة الدامية
فالتزموا الدفاع فى أماكهم وبينهم وبين عدوهم البحر ، على

أن المصريين لم يدعوا لهم لحظة للاستقرار ، فلا يرالون يصلونهم
ناراً وبرموهم بالحمايق ويتحطفونهم أحياء ويتصيدونهم بالسال ،
ثم أعدوا عدتهم ليقطعوا عليهم طريق العودة ويحصرهم حيث
كانوا حتى يطلبوا الأمان أو يموتوا ، فصعدوا أسطولا من السفن
المحاربة وحملوه في الرقعة إلى حيث أنزلوه في بحر المحلة واتجهوا
إلى ما وراء خطوط الصليبيين . فقطعوا عليهم طريق العودة
إلى دمياط وطريق التموين جميعاً وقل الراد في معسكر العدو
وتناثرت على جوانبه حشث القتلى وطغت على سطح الماء ، فانتسر
النساء وأصاب الحيل والناس جميعاً . فلم يجد الصليبيون
مناصاً من الرحيل برأ إلى دمياط عن طريق فارسكور .
حينئذ تهباً المصريون للهجوم إذ لا يملك العدو عن نفسه دفعا .
وكان ما لا بد أن يكون ، وتعثرت الحملة الصليبية الساعة
أساءة ممرقة ورمماً . وبلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً ، وسبق من
بقى إلى معقل الأسرى حتى يفتدى نفسه ، وأسلم الملك لويس
التاسع نفسه فاقنيد أسيراً إلى المصورة حيث اعتقل في دار
انتادى فخر الدين بن لهما وحعل في رجليه قيد من حديد ،
ووكل حراسته الخصى صايح المعظمى ، واقنيد معه إلى الأسر أخواه
الأميران العوس وآحو . ونصع عشرات من النلاء والسادة

١٢

وبلع الملك المعظم طوران شاه مصر فنزل بالصالحية ،
 واستقبله الأمير حسام الدين نائب السلطنة مهتماً ، فخلع عليه
 الملك ورده إلى بيابته . وأديع يومئذ نعى الملك الصالح نجم
 الدين أيوب - في منتصف دى القعدة - بعد مهلكه ثلاثة
 أشهر . وبودى بطوران شاه سلطاناً على البلاد . ورحل إلى
 المصورة فحل بدار أبيه وحللاً بأصحانه يدر أمره .
 وعذر باق طای وكان قد وعده في الطريق أن يقطعه
 بعص البلاد

وعزل حسام الدين عن بيابته ولولاه ما دعاه داع إلى
 عرش مصر

وأقصى قلادون وأبيك ويبيرس وكل التركمانية من ممالك
 أبيه ، وكانوا دعائه وجره

وأرسل رسله إلى دار الأمير فخر الدين بن الشيخ فاحتملوا
 إليه كل ما فيها من مال ومتاع ورقيق فلم يدعوا فيها شيئاً
 يقوم بمال

وبعث إلى شجرة الدر يناقشها حساب ما أنفقت وما أنقت
من تركة أبيه ويسألها أن ترد إليه ما تحت يدها من مال
وجواهر.

وجاس خلال عرفات القصر يعانت العلمان المرد والحوارى ،
واقنحم على خطايا أبيه حدورهن فلم يترك على وجه حجاباً ، وأسمر
عن وجه وقاح

وأهرعت حهاان إلى مولايها وقد قد قميصها

— الحماية يا مولاتى

— ماذا بك يا حهاان

— السلطان يا مولاتى .

— مالك والسلطان

— لا يريد أن أكون لبيرس

— وما شأنه ببيرس

— لا شأن له به يا مولاتى ، ولكنه يدعوى إلى ما لا أطيقه

ولا يطيقه ببيرس

— أتعين

— نعم يا مولاتى ، وقد قد قميصى ههرت من بين يديه

أتمس حمايتك

— وإذا أعاد محاولته يا حهاان

— أقول له إننى لبيرس
 — وإن أئى أن يستمع إليك ؟
 — لن يعلب إباؤه إباثى !
 — فادا اعتصلك يا حهاان ؟
 — أدود عن نفسى بىدى حتى أموت ولا أخون أمانة
 بىرس !

٢ ١ ٢

ووفت حهاان مما وعدت فلم تحس أمانه بىرس . وكان
 بىرس يدفع بسيفه فى أفقية المهرمين دفاعاً عن بلاده ومليكه .
 حين كانت حهاان تدفع بيدها فى وجه مليكها مستسلة لا تريد
 أن تحوّل أمانة بىرس
 وحملت على أعناق الرجال عذراء طاهرة لتوارى الثرى ،
 وحمل السأ إلى بىرس عداة عودته مطفراً من أعظم معركة
 حاصتها مصر ضد العزاة وكان هو بطلها المحلى
 وأقسم بىرس أن يثأر لفتاته ولو تحصص العرش بالدّم !

١

وأسرف طوران شاه فى الشراب واحتجب . ولم يدع أحد
 من الأمراء والسادة إلا ناله بمساةة ، وانترع السلطات من
 أيدى الأكماء ليضعها فى أيدي الأراذل من مماليكه وبدمانه .

وكأنما بدا له وقد صار إليه العرش أن من حقه أن يعرض على
أهل البلاد جميعاً أن يستأسروا له طائعين ويملكوه أموالهم
ودمائهم . وأعراصهم أيضاً

وصاق به الشعب والأمرء والممالك جميعاً ولم يجلس على
العرش إلا بصعّة أسابع

وتدانت الرؤوس ، وتهاست الشفاه . وتبادل المؤتمر
الرأى بينهم طويلاً ثم انتهوا إلى فكرة

وكان الملك المعظم في فارس كور قد أمر مصب له على شاطئ
اليل دهلير سلطاناً . وأقيم إلى حاسه برج من خشب ،
وهيئت له أسباب القصص والمسرة . فد السباط ، وأوقدت
الشموع . ورصت القناني والكتوس

وبال منه الشراب فاستل سيفه وأخذ يطيح رؤوس الشمع
وهو يصيح في نشوة

— كذلك أفعل بالممالك البحرية !

وتسلل إليه بيرس وفي يده سيف مسلول . فأهوى به
عليه وهو يقول في انفعال وغيظ

— وكذلك تفعل بك !

وبال السيف يده ولم يصب منه مقتلاً ، فخرج صائحاً

— ما فعل بي ذلك إلا البحرية ، والله لا أبقيت منهم بقية !

ثم لجأ إلى الرح الخشى ، فكأنما كانت كلمته تلك إعراء
للبحرية بالاحهاز عليه ، فحصره في الرح وأشعلوا فيه النار ،
وعاين الموت فصاح من أعلى الرح

— من يصطعنى فيقلبنى وله عرشى !

وحملت الريح صيحته فلم يستمع إليها أحد . وحصرته النار
حتى شوت حلده ، فألقى نفسه إلى الليل وهو يصيح في
يأس

— ليس نى حاجة إلى ذلك العرش . دعونى أرجع إلى
حصص كيفأ !

وابتلع اليم كلماته فلم يستمع إليها أحد . وألقى آق طاي
نفسه وراءه فأحهر عليه نسيه في الماء . فماب طعيماً حريقاً
عريقاً ، ثم حملت حنته إلى الحسرحيت طلث ثلاثة أيام
حتى جافت ، فلم تدوس إلا شفاعاة رسول الخليفة العباسى .
فهوريت التراب بلا احتمال !

١٣

كانت الشمس قد عابت ولكن السماء لم ترل مصطعة بلون
الشفق ، حين أرسى رورق صغير على شاطئ المصورة فهبطت
مه سيدة ملثمة تحب في ثياب صففاة قد سترتها من قمة

الرأس إلى أخص القدم . فلا يدومها إلا عيان تنصان فيهما قلق وريبة . ثم هبط وراعاها من الرورق شانا فارعا في ثياب القرسا لهما سمت ومطروفي عيوبهما مثل ما في عبي السيدا من الريبة والقلق وكأما أرسى الرورق على هذا المكان من ذلك الشاطئ في هذه الساعة من الليل لموعدا قد حدد بدقة ، فلم تكذب السيدا والشانا يهبطون إلى الأرض حتى أقبل شابان في ثياب الحرس السلطاني . مثلا بين يدي السيدا وانحيا احساء خفيفة للتحية ثم استدارا إلى الطريق ومشيا تتبعهما السيدا ورميلاها لم يتحدث أحد مهم إلى أحد . كأما هي خطة مرسومة قد عرفها كل واحد من الخمسة تفصيلا فلا حاجة به إلى أن يسأل ولا أن يجيب ومشت السيدا يسبقها شابان ويتبعها شانا كأما يقيس كل مهم خطوته حتى لا يتأخر عن موضعه من رملائه . على أن السيدا فيما يدوم لم تسلك ذلك الطريق من قبل مفردة ولا مصاحبة ، فقد كانت حركة رأسها في ذلك الطريق تنبئ عن رعبها في أن تحقق الطريق كل ما تقع عليه عينا من صور الطريق ، أولعل ذلك كان مطهراً من مظاهر القلق النمسي الذي يدوم بطرة عينها

وطلوا يمشون حتى انتهوا إلى بناء قائم في طرف المدينة قد انسط بين يديه فناء واسع وقام على بابه بواب عليط العنق

عريض الصدر في عينيه جد وصرامة وفي وسطه منطقة قد
تدلى منها خنجر في حرايه لا يبدو منه إلا مقنص عاطل من
التنويه والرخوف . فلم يكذب يقرب منه هؤلاء المرءة الخمسة حتى
خلى مكان إلى حاب الباب ليصيح لهم الطريق ، فلما صاروا
نراء الباب دفع أحد الشاينين مصراعه بيده فافتتح ، ثم وقف
ووقف زميله وانصرح بينهما طريق بعدت منه السيدة إلى
الباب يتبعها الفارسان الشانان ، ثم انصهق وراءهم الباب
وكان لويس التاسع حالسا في حاب من العرفة على حشية
مصنوعة على ساط دى تصاوير وقد أسد طهره إلى وسادة
على الحائط حين سمع على الباب طرفاً حقيقاً . فقال في صوت
خافت كالهمس
— ادخل .

فدخلت السيدة وخلعت الشاينين يتطران خلف الباب ؛
فلم تكذب تتوسط الحجرة حتى رفعت عن وجهها اللثام ونضت
عن حسدها ذلك المعطف السانع ، فلم يكذب يراها لويس حتى
صاح في لطفة وقلق

— مرحريت ! ما حاء بك ؟

وهب واقفاً ، ثم ابدع إلى روحته مشوقاً قلقاً قد تورعته
الحواطر واختلطت به مدهاب الفكر .

قالت مرجريت فى هدوء

— جئت لأقيم معك فى هذا الأسر يا لويس ، حتى
يأذن الله بالمرح .

— ماذا ؟ أتبلع العلطة بهؤلاء الأوعاد أن يقودوا إلى الأسر
مرجريت دى بروفانس لأن روحها قد كان معهم فى حرب
مشروعة ؟

— رويدك يا لويس ، فما قادنى أحد إلى الأسر وإعما
استأسرت لم طائفة لأوبس وحشتك يا حبيبى !
— أنت ! تستأسرين هؤلاء الكمار طائفة من أحلى
يا مرجريت ؟

— من أحلك يا لويس ، فما تطيب لى الحرية وأنت فى
وحشه الأسر لا تجد من يؤسرك ويسرى عليك فهل يسوءك
يا لويس أن تشاطرك روحك آلامك ، لتنال معك من نعمة
السما أحر الجهاد والصبر

— الآلام، والجهاد، والصبر ما أعظم ما تصفين يا مرجريت
وما أقل ما نستحق من الأجر ! لو لم تكن هذه الخاتمة
لأملت أن يكون ما تصفين من الأحر ، أما وقد كان ما ترين
فانى لم أفعل شيئاً إلا أن سفكت دم عشرات الآلاف من
أهل الصليب . فعلى رأسى هذه الدماء جميعاً يا مرجريت !

— تلك إرادة السماء يا لويس ! ومادا كنت تملك أن تفعل

غير ما فعلت ؟

— كنت أملك أن أموت على صهوة حوادي وفي يدي

سبي يقطر من دم هؤلاء الكفار !

— ومن يبارك ولأولئك الآلاف إن كان ذلك يا لويس ؟

— وهل تأملين يا مرحريت أن أعود إلى الحرية فأنار

لأولئك الآلاف ؟

— ستعود إلى الحرية يا لويس ، وتعتلى صهوة حوادك ،

وتروى طمأ سيعك من هؤلاء الكفار ، وتأرلن قتلوا من الشهداء !

— هيات يا مرحريت أن يطلق هؤلاء المسلمون لويس

ملك فرنسا وقد حصل في أيديهم ، إهم ليعلمون ما يحمل

لهم في صدره من العصاء وما يتمي لهم من آماني السوء

— بل سيطلقون سراحك يا لويس إذا أدبت لهم ما يطلبون

من مال . فهل جاءك أنهم قتلوا مليكهم ولم يستقر على عرشه

نضعة أساييع ، لأنه هم أن يسألهم فيم أنفقوا ما حلف أبوه من

المال ؟ المال يا لويس هو الذي أعراهم مليكهم فقتلوه شاباً

في عموانه ، وهو الذي يعريهم بأن يردوك إلى الحرية لتتياً

للنار !

— يا ليت يا مرحريت ! ولكن من دا يدفع غنى ما قد

يظلمون من القدية ويدأى معلولتان ٤

— سيتارى رعاياك من أبناء فرنسا ، والمسيحيون فى شتى
بقاع الأرض ، ليدفعوا قدية القديس لويس ويردوا إليه حريته
— آه ! ما أظيب قلبك يا روحى المحونة ! إن المسيحيين
وأبناء فرنسا على السواء يا محررير لا يحون لويس إلا حين
يقودهم إلى المعامم ، أما لويس الأسير فى دار موحشة من بلاد
الكفر فليس يحظر على نال أحد أن يقتديه بدم أو مال أم
حسبت كل هؤلاء الآلاف الذين كان يقودهم لويس من
مرسليا إلى دمياط فالمصورة كانوا يتبعوه لشيء غير طلب
الغنيمة والمجد ٥

— أوه ! أدلك قولك يا لويس ٦

طأطأ الملك الأسير رأسه فى انكسار وهو يقول فى صوت حافى
كأنه بين يدى قسيسه يعترف بما أسلف من خطايا
— نعم يا مرعريت ، لقد حرحا باسم الصليب بطلب المجد
فى الأرض . فتحققت فيما مشيئة الرب واتهينا إلى الأسر
والهوان والمدة !

قالت الملكة فى همس

— لله شجرة الدر ! كما كانت تقرأ من لوح مسطور وراء
العيب ما سمعته أدناى الساعة

- ماذا يا مرعريت ؟
- لا شيء يا لويس .
- ولكن كلمات هامسة كانت ترق على شفثيك . . .
- كنت أعيد ما وعته أداى من حديث شجرة الدر .
- شجرة الدر ؟
- نعم ، ملكة مصر والشام وورثة عرش صلاح الدين .
- أو صارت ملكة ؟
- نعم . وإياها لأهل لما بلغت ؟
- وماذا وعته أداك من حديثها ؟
- ما كنت تقوله لى الساعة يا لويس
- لم أفهم ما تعنين يا مرعريت
- قالت لى إنما خرجتم باسم الصليب تطلون المحدث
- العبيمة ، فحق عليكم أن تسهوا إلى الأسر والهوان والمدلة !
- كذا قالت ؟
- نعم ، وكدت أرد عليها قولها وأترك مجلسها غير معتدرة
- ثم ماذا ؟
- ثم كطمت عيطى واحتملت اللطمة من أحلك يا لويس
- من أحلى أنا ؟
- نعم ، فما سعيت إلى لقائها إلا لأسألها بما جلت عليا

كل أنثى من العطف والرحمة أن تأدب لى فى لقاءك والتحدث
إليك ساعة . وقد أدت لى أن أحصر إليك تحت الليل فى
حراسة اثنين من فرسان الداوية . وأصحتنى اثنين من حراسها
ليدلانا على الطريق ويدفعا عنا ما قد يعترضنا من شر العامة .
فان شئت يا لويس بقيت إلى حاسك فى هذا المعتقل حتى
يأذن الله بالفرج

صمت الملك برهة يفكر . ثم رفع رأسه قائلاً

— ولكننى لا أشاء يا مرعريت ١

— لماذا يا حبيبى ٢

— لأنك تستطيعين فى حريتك أن تسدى إلى يداى ، إذا

رصى المسلمون أن أفتدى بنفسى مال

— وإذن فأنت ترى أن أعود إلى دمياط لأحتال فى جمع

ما قد يطلب المسلمون من مال الفدية ٣

— نعم . وإلى اللقاء يا مرعريت ١

— إلى اللقاء يا لويس ٢

وعادت الملكة أذراحتها . وعاد الملك فجلس على حشيشته

مستنداً إلى وسادة على الحائط يفكر ، وانصق الباب وراء

الثلاثة ، وتقدم الحرسىان السيدة المثلثة على الطريق وتنعها

الفرسان حتى انتهوا إلى شاطئ الليل ، وهبطت السيدة

إلى الزورق ثم تنعها الشانان ، فانساب الورق على سطح الماء مسحراً إلى الشمال .

١٤

لم يكر أحد في مصر على شجرة الدر حقها في اعتلاء عرش الأيوبيين بعد مصرع طوران شاه، إلا من حيث أنها امرأة ، فلولا أن التقاليد في مصر الإسلامية لم تشهد قبل شجرة الدر أنثى على العرش لكان لها الجميع بالولاء والطاعة في إحلاص ومحنة . فقد كانت من إحكام التدبير وحسن السياسة وسعة النفس وطيب السمعة بحيث لا يعرض ذكرها على لسان إلا في معرض الإعجاب والتقدير والمهابة . وكان المماليك الصالحية — وهم يومئذ عدة الدولة وعصدها ومظهر قوتها وعمومها — أشد طبقات الشعب لها إعجاباً وتقديراً ومهابة ، إذ كانت روجة أستاذهم وولي نعمتهم الملك الصالح أيوب ، هذا إلى أن هؤلاء المماليك لم يسوا قط أن ينهم وين شجرة الدر آصرة أوتق وأقوى . فقد كانت رقيقاً متلهم قبل أن تبلى منزلة الإمارة . فما أحدرهم ألا يأنفوا بعد من ماصيهم في الرق إذا كان الرق يؤهلهم إلى الإمارة والملكية، بل ما أحدرهم أن يباهوا بمملوكيتهم هذه إذا كانت امرأة من « أسرة المماليك » قد رقيت العرش بمجدها

وكهايتها - ومن ثمّة كان نعصهم لها وليثارهم إياها ولرومهم طاعتها والولاء لها .

ولم تنس شجرة الدر حين أجمع الأمراء على توليتها العرش أن سويتها هي وحدها الحجة التي يمكن أن يحتج بها الذين يكفرون عليها أن تكون ملكة . لذلك حرصت من أول يوم على أن تصيف اسمها السوي إلى اسم آخر لا تنكر عليه التقاليد حق الملكية . فصار اسمها منذ وليت العرش الملكة أم حليل . فهي ملكة نأها أم . لا نأها امرأة . وما أكثر النساء اللاتي حكمن في التاريخ بأسماء أبائهن ولعلها ذكرت وقتئذ ما حدثها به أبوهريرة المصم مد بضع عشرة سنة

على أن شجرة الدر وقد نشأت في حجاب الملك الصالح — على ترمته وعيرته — لم تطب نفسها وقد وليت العرش أن تخرج على مألوف عاداتها أو تعدر بعهد مولاها فتتربص إلى الرجال تحدثهم ويحدثونها في شئون الملك والسياسة ، فأثرت أن تحتار من الأمراء من يكفيها ذلك ويرد إليها الأمر ويستمد منها الرأي ولعلها ذكرت وقتئذ ما كان بينها وبين الأمير فخر الدين من حديث قبل أن تحترمه الملية

وقد كان يسعها أن تحتار لذلك الأمير حسام الدين بن أي على نائب السلطنة لعهد زوجها الملك الصالح ، أو الأمير

نارس الدين آق طاي مقدم الممالك ، أو الأمير ركن الدين
 بيرس قاهر الصليبيين . أو الأمير سيف الدين قلاوون .
 ولكنها أثرت على كل أولئك الأمير عر الدين أيبك الخاشكير
 واطرحت غيره من أصحاب الحاه والإمارة . أما حسام الدين
 فانه لم تس له أنه أول من أرسل إلى طوران شاه في حصص
 كيما يعي إليه أناه ويدعوه إلى العرش . وأما آق طاي ولأنه
 كان شريك حسام الدين في ذلك التدبير ، وأما بيرس ولأنه
 أول من شرع السيف في وجه طوران شاه فقد دراغه ، فانه
 لتحشى إن أدته بعد ذلك أن يقال إنه بتدبيرها قتل مليكه
 ثم نال الثمر . وأما قلاوون فانه صاحب بيرس وآق طاي .
 ثم إن أيبك - فيما ترى - رحل هادئ الطبع يؤثر السلامة .
 فليست تحشى تسلطه واستثنائه وإها لتحب أن تجتمع في
 يديها كل السلطات

وكان من تقاليد بني أيوب - مدولى صلاح الدين عرش
 مصر وأنطل فيها مذهب الشيعة - أن يلتمس الخالس على
 عرش مصر اعتراف الخليفة العباسي في بغداد بولايته .
 وكأما حشيت شجرة الدر ألا يعترف بها الخليفة ، فأصافت
 إلى اسمها صفة أخرى . رلى إلى الخليفة المستعصم ، فهي
 « شجرة الدر أم حليل المستعصمية »

ونقش اسم شجرة الدر على السكة ، وصدرت باسمها
الأحكام ، ودعى لها على المنابر ، فكان الخطباء يقولون في الدعاء
كل جمعة « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المسيع ،
ملكة المسلمين . عصمة الدنيا والدين . أم حليل المستعصمية »
وحلعت على الأمراء فأفاقت ، وتصدقت على الفقراء
فأعذقت ، ونشرت راية السلام فأمن الناس

وبدب الأمير حسام الدين والقاصي بدر الدين السجاري
ليفاوضا المبرحة على الحلاء عن الأرض والساحل ودفع فدية
الأسارى . وأدعس الصليبيون مكربين لما أملى عليهم من شروط
الصلح . واحتهدت مرعريت دى بروفانس في تحصيل المال
لاقتداء روجها وأخويه ، فدفعوا ثمناً لحریتهم أربعمئة ألف
دينار ، وأبحرت السفن بمس بقى مهم في الرابع من صفر سنة
٦٤٨ . وعادت الراية الاسلامية ترفرف على دمياط .

ومثل الأمير جمال الدين بن مطروح بين يدي شجرة الدر
وقد أسل من دوما الستر ، ينشد من شعره في جمع من الأمراء
قل للفريسيس إذا حثته مقال صدق من قول نصيح
أحرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصر تبغى ملكها تحسب أن الزمريا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم صاق به عن ناظريك الفسيح

وكل أصحابك أودعتهم
 سعور ألقاً لا يرى مهم
 ألهمك الله إلى مثلها
 إن يكن النانا بدا راصيا
 فاتحدوه كاهسا إيه
 وقل لهم إن أرمعوا عودة
 دار اس لقمان على حالها
 بحس تدبيرك بطن الصريح
 إلا قتيل أو أسير حريح
 لعل عيسى منكم يستريح
 قرب عش قد أتى من نصيح
 أنصح من شق لكم أوسطيح
 لأحد ثار أو لفعل قبيح
 والقيد باق والطواشي صريح !

١٥

قال بيبرس

— لقد كان كل ذلك والله سعد شجرة الدر وإحكام تدبيرها
 للملك . فرأيها كان إخفاء موت مولانا الملك الصالح حتى لا
 تنشب الفتنة ويطمع العدو . وبحس توجيهها كانت هزيمة
 الفرنجة في وقعة المصورة ، ومعركة الإنادة في فارسكور ،
 وابقاد الملك لويس للأسر ، وحلاء الصليبيين عن دمياط
 وأرض الساحل ، ثم هذه القدية التي أرهقت العدو وعمرت
 حزانة مصر

قال آق طای

— إنيك لتحدد قدر نفسك يا بيرس ٠ فلولا بلاؤك في معركة المصورة ، وركوبك أقمية المهرمين في فارسكور ، ما كان شيء من ذلك

فاحتلحت شفتا بيرس وانتفح مسحراه رهواً وقال وهو يصطلع التواضع

— وما أنا وأنت وهؤلاء التركمانية جميعاً ١ هل يحس إلا حند الدولة وعدتها إن ألت بها كارثة ٢ فقد كان كل ذلك حق الدولة عليها

قال آق طای محمقاً

— ومع ذلك فقد أعملت حتى وحفك وآثرت عليها أيك الجاشنكير

قال بيرس غير مكترث

— أفذلك تعني يا آق طای ٣ إن الأمر لأهون مما تقدر ، وإن أيك لرحل من حلدتنا على كل حال ، وإيه لأسلم عاقبة من مثل الأمير فخر الدين

فاستدرك قلاوون عائناً

— ولكن سوعة أني رهرة المسحم ما ترال تتحايل له أمية

بالبهار وحلماً بالليل . فلعله وقد صار أدنى إلى العرش أن تحيل
له أوهامه أن يستبد

فصحك بيرس وقال

— وماذا يكيذك من ذلك يا قلاوون وقد تسأ أبورهرة لى ولك
يمثل ما تسأ به لأيك . فدعه يرود لنا الطريق ^١

عص آف طأى على شعته ضحراً وقال

— لا ترالون فى هذا العت أيها الممالك والأمر حد ، وإنى
لأرى ما لا ترون

قال حسام الدين بن أنى على فى هدوء

— أراكم تستقون الحوادث أيها الاحوا وتقدرون ما لا يمكن
أن يكون ، فما أطل الخليفة المستعصم يقر تولية امرأة على عرش
مصر وإن هزمت الصليبيين وطهرت مهم بلاد الاسلام ،
وهذا ابن يعمر نائى دمشق قد حرح على الطاعة وأنى أن
يكون تحت سلطان امرأة ، وانصم إلى الثورة أمراء بى أيوب
فى الشام . وكأنى يوم قريب يرحف فيه من المشرق جيش
لحب بقيادة الناصر صلاح الدين بن العرير صاحب حلب .
ليستخلص عرش مصر من شجرة الدر .

قال قلاوون

— بل قل ليستخلصه من أيدي التركمانية برعمه

قال آق طاي في حماسه

— والله لا كان ذلك أبداً وفيما حياة . لقد صبيع بوأيوب
عرشهم حين تفرقوا في الأرض يطلبون المافع الصغيرة العاحلة
وتركوا هذه البلاد تطؤها أقدام الغزاة فلم ينقدها إلا التركمانية !
قال بييرس معترضاً .

— ولكلك كنت تنكر مد قريب أن يكون أهلك حاجب
الملكة وتأتي عليه مكانه .

— نعم . ولكن الدولة تركمانية يا بييرس مد استخلصها
ممالك الترك من أيدي الصليبيين ، فلا يمكن أن يعود إليها
سلطان الكرد وسأدفع عنها نسيبي ولو كان الملك الجالس على
العرش هو أهلك الحاشنكير !

• •

— مولاتي

— ما ورايك يا عر الدين ؟

— قد حاء رسول الخليفة أمس بكتاب

— ماذا فيه يا عر الدين ؟

— إني لم أفص علاقه يا مولاتي ولكنه هو الذي فص العلاف

وأقرأيه

- وى ! ذلك تنىء لم تجر به عادة الملوك يا أيبك !
- نعم يا مولاتى ، وإنما فعلها بأمر مولاه الشيخ نجم الدين البادرأى رسول المستعصم
- لأمر ما يعمل المستعصم ما بين بغداد والقاهرة من تقاليد السياسة ، فنادا فى تلك الرسالة يا أيبك «
- ها هى دى الرسالة يا مولاتى
- «إذ كانت الرحال قد عدت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رحلا أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صل الله عليه وسلم أنه قال لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» «
- طوت شجرة الدر الرسالة ودفعها إلى أيبك وهى تقول
- ومن صاحب رأى فى قصر الخلافة بغداد اليوم
- يا عر الدين ؟
- المستعصم بن المستنصر يا مولاتى
- المستعصم أم حواريه وحصيانه ووريره الرافضى
- يا أيبك ؟
- أنت أعلى عيباً يا مولاتى
- وامرأة على العرش كشجرة الدر يحكم باسمها ويصون حكامها أمير مثل عر الدين خير حكماً ، أم صبي وحرارية وورير رافضى وحليفة لا حكم له ؟

— أنت أحكم سياسة يا مولائي وأشد رأياً ، وإن للمستعصم
عليها ولاء التطوع لاولاء التابع . فان شئت يا مولائي رددت
رسوله بلا جواب !

— صبرك يا أهلك ، فما يطيب لي أن أشق عصا الطاعة
على الخليقة وأحاهر بالعصيان له ، فهل تراه يعنى حقيقة الحكم
أو مظهره حين يشترط الرحولة ؟ فاني لأستطيع أن أترصاه فأجعل
له على العرش واحداً من أمرائي ويبقى في يدي السلطان
والصولحان

عص أهلك بريقه ولم يحد حواهاً ، واستطردت شجرة الدر
في صوت حافت كأنما تتحدث إلى نفسها
— ولكن امرأة الملك الصالح لا يحمل بها أن يكون لها
شريك في الحكم تحلو إليه للرأي والمشورة إلا بعين الله وعلى
دين ومروءة

ورفع أهلك إليها عييه فكأن لم يرها من قبل ولم يستمع إلى
بر حديثها ، ورأى نارائه امرأة في الشباب ذات جمال وفتنة
ولم تكن من قبل إلا ملكة ذات مهابة

واحتلج ، ووجد في صوته حسنة وفي أطرافه خدراً ، فلم
يستطع إلا أن يهتف

- مولاتى
 'مأسك قالت شجرة الدر
 - قد فهمت ما تعنيه يا عر الدين ، ولكن لك امرأة
 وولداً
 وانحلت عقدة لسانه فقال فى طلاقة
 - هل هى وولدها يا مولاتى إلا حارية من حواريك
 دات ولد ؟
 قالت باسمه
 - أتريك فى الحكم وشريكة فى الروح ؟
 فاندفع متحمساً
 - بل لك الحكم . والروح . والولاء كله يا سيدتى !
 - وتطلقها يا أبك ؟
 - وأطلقها فلا تمت إلى سبب ولا وشيجة !
 - وتهجر دارها فلا تراها ولا تراك ولا تتحدث إلى ولدها
 حديثاً ولا يتحدث إليك ؟
 - وأقطعها قطيعة بائنة فليس يبنى ويدها آصرة ، لأخلص
 لشجرة الدر فليس لغيرها فى القلب مكان ولا فى النفس ذكرى !
 وابتعت عينا المرأة واحتلج بدنها . فقالت وقد مدت إليه يداً .

— فليهنك الملك يا أيبك

قال وقد شد على يدها بأصابع متشحة

— وليهي رصاك يا مولائي !

وعادر مجلسها وقد اتسع صدره ، وسمح أنه . وانطبق

فكاه ، ولعت في عييه نظرة ملك

وبودى بالملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ملكاً على البلاد

في آخر ربيع الاحر سنة ٦٤٨ ونزلت له شجرة الدر عن العرش

الدى وليته مستقلة به مند مصرع طوران شاه

وحمل نجم الدين البادراني حواب الملك المعز إلى الحليفة

المستعصم في بغداد يعبر له فيه عن ولائه وطاعته ويسأله أن

أن يقره على العرش ويبعث إليه بالحلعة ومرسوم التولية

ومصت أيام ، ثم دعى الفقهاء والقضاة وأمرأ المماليك

ورؤساء الحلد إلى قصر القلعة ليشهدوا عقد الملك على شجرة الدر.

وكانت ملكة أرملة ، فعادت ملكة وروحاً ، وإنها لتأمل

إلى ذلك أن تصير أمماً تهياً ولدها للعرش بعد أبيه المعز وتتعوص

به من ولدها الذى مات مند سنين !

وبدا كما استقرت الأمور في مصر وثبتت عرشها للتركمانية ،
لولا انتقاص أمراء الأيوبيين في الشام ، واستيلاء الناصر صلاح
الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب على دمشق ، وورود
الأنباء بحركته إلى مصر

وكأما حيل إلى الممالك في مصر أنهم يستطيعون أن يسترضوا
الأيوبيين في مصر والشام لو أنهم جعلوا على العرش أميراً من
بني أيوب إلى جانب أبيك وكان مهم إلى ذلك جماعة
يفسدون على أبيك ما بلغ من المكانة ويأنفون من رياسته ،
فكأما بدا لهم أن يجعلوا له شريكاً في الملك ليستقصوا مظهره
الملوكي ويكسروا شموحه وكبرياه

فأقاموا صبيهاً يتيماً من بيت الملك الكامل باسم الملك الأشرف
موسى ، وقربوا اسمه إلى اسم الملك المعز ، فكانت المراسيم تصلو
وعليها اسم الملكين ، وكان حطباء المساجد يدعون على الماير
للمعز والأشرف معاً ، على حين لم يكن لواحد منهما على الحقيقة
أمر ولا هي ، إذ كانت الساطات كلها في يد شخص ثالث

يُحسن التدبير والسياسة . هو شجرة الدر
ولم يتحقق للمالِك ما أرادوا بتولية الملك الأشرف . فلا
الأيوبيون ثابوا إلى الهدوء والطاعة ، ولا الملك المعرصف من
شموخه . فان الموك الملكى ليشق سوارع القاهرة لا يكاد
الناس يرون إلا الملك المعرق قد ححب بحسامته وامتداد فرعه
الملك الصبى

وقوى أصحاب الناصر فى الشام وتهبثوا للرحف على مصر فلم
يقب إلا أن تشب المعركة بين الأيوبيين والمماليك البحرية ،
فاما عادت الدولة أيوبية كما كانت وإما غلب التركمان فصار
عرش البلاد للمماليك يتعاورونه مملوكاً بعد مملوك

ولم يكن العرب المصريون بمعرل عن هذه الحوادث وإلهم
ليؤمنون بأنهم أحق بعرش هذه البلاد من الكرد والتركمانية
جميعاً . وقد كان لهم الحكم والسلطان فى الدولة مد انتشار الاسلام
فى ربوعها حتى انتزعها صلاح الدين من أيدي الفاطمية ،
فما أحذر أن يعود إليهم الحكم وقد تقلص طل الكرد عن البلاد
وايحسر الخطر الصليبي

وتهبأ الأمير ثعلب شيخ أعراب ديروط لاهتيال الفرصة
يؤيده عشرات الآلاف من العرب فى الحبوب والشمال
وأشرقت الدولة على الانحلال وتورعتها المطامع ، وكانت

شجرة الدر ترقب الحوادث في حدر ويقطة وتعد لكل أمر
عدته

وحرح حيش المصريين لقتال الناصر الأيوبي ، وعلى رأسه
الملك المعز والأمير فارس الدين آق طاي التركماني وسائر أمراء
المماليك ، ودارت المعركة في عرة ، ثم في بليس . وكادت
تدور الدائرة على التركمانيه . لولا كثرة من كان في حيش
الناصر من مماليك الترك

وعاد حيش المصريين إلى القاهرة مطهراً ومعه الأسرى من
حيش الناصر . ساحقهم مكسة . وطولهم مشقة ، وقد
سقطهم إلى القاهرة حيولهم وأثقالهم وأموالهم عسيمة للمصريين
وأحصى من تسرب إلى القاهرة من حشد الناصر فادا هم
بصعة آلاف ، فألزمهم المعز أن يعودوا من حيث أتوا ،
راجلين أو على ظهور الحمير من مصر إلى الشام ، لا يؤذن لأحد
مهم أن يركب فرساً

وشهد المصريون موكباً هائلاً لم يروا مثله قط ، مشهد يثير
السحرية والإشفاق جميعاً ثلاثة آلاف حمار عليها المرتدون
من حيش الناصر قد نكسوا رؤوسهم حتى قاربت أن تمس
آذان الحمير . فلعل حماراً منها أن يهق فيهق لهيقه ثلاثة
آلاف حمار يتردد صداها بين مصر والشام !

وشمخ آق طای بأنه إد كان بجده واستبساله قد أدرك المعر
هذا النصر ، فوقف بين يدي الملكين يوحه حديثه إلى الملك
الصبي دون صاحبه .

— كل ما حصل لسعادتك يا مولاي ، وما سعيها إلا في
تقرير ملكك !

وفهم أيك ما أراد آق طای فتعاني وطوى صدره على ما
فيه من صاحبه .

ثم دارت الدائرة على العرب كما دارت على الأيوبيين فأحصى
من قتلهم بصعة آلاف . ونصبت المشاقق لأمرائهم على امتداد
الطريق بين بلبس والقاهرة ، واعتقل الأمير ثعلب فألقى في
حب من حباب القلعة ، وجمدت بحرة العرب

وتوسط نجم الدين البادرائي رسول الخليفة في الصلح بين
الملك المعز والناصر صلاح الدين ، عل أن يكون للمعز مصر إلى
حدود الأردن . مصافاً إلى ذلك عرة والقدس وبابلس والساحل
كله ، وللناصر ما وراء ذلك من بلاد الشام

وصفاً لجو للملك المعز وأمس طهره ، فحلج الأشرف موسى
وفناه إلى بلاد الأشكري واستأثر بالملك وحده ، ولكن شجرة
الدر ظلت قابضة على السلطان فليس لأحد معها رأى ولا
إرادة

وحلصت الدولة للماليك

— أرأيت أهلك في موكنه يا بيرس ، شامح الأنف ،
مطلق المكين ، ثاب الطرة . لا يكاد يرد التحية ، كأن مصر
صيعته وكل من فيها عبيده

— ذلك حق الملوكية يا آق طاي ، أم تريده وقد صار
إليه عرش مصر أن يمشى في الأسواق راحلاً يحب كل من
يسأله ويقف لكل من يهتف باسمه ؟

— أتمرح يا بيرس فأنى حق كانت له الملوكية دون
سائر الماليك الصالحية، وما هو كبيرهم . ولا أثبتهم قدماً في
الجهاد . ولا أوسعهم حيلة ، ولا أقدمهم مملوكية !
— بحق شجرة الدر

— ها ها ! وما لشجرة الدر وهذا كله ، أصار إليها هذا
العرش ورائته كبعض ما يرث الناس عن أهلهم من المتاع
فهبه لمن تشاء ، أم أوليناها نحن إياه يا بيرس ؟
— ولكها روحة مولانا الملك الصالح أيوب .

— بلى ، قد كان ذلك يوماً . أما اليوم فإها روحة الحاشكير .
فان كان أهلك قد حيات له أوهامه أنه بهذا وحده قد صار له
عرش مصر من دونها فقد ساء رأياً ، وسيرى عاقبة أمره !

- ماذا تعنى يا آق طای ؟
 — لست أعنى شيئاً يا بيرس . وإنما أنا أمير الممالك
 — سادة هذه الدولة — لا يعرفون لهم أميراً عبرى . فان كان لا بد
 — مع ذلك — لادراك السيادة من أن أصل حلى بسب ملوكى
 فما أيسر أن تكون لى روحة أعرق أرومة وأوثق صلة بالملوكية
 من روحة أيلك الحاشكير !

* * *

وأثارت مظاهر الدح والآهة التى يجرح بها أيلك على الناس
 نفوس الأمراء جميعاً . وكأما لم يحسوا بانتقال رميلهم من
 المملوكية إلى العرش إلا حين تقاى الأعداء والمتنافسون وخلصت
 الدولة للتركامية ، فأحد ذلك لكل أمير من أمراء الممالك أملا
 فى اعتلاء العرش يلتمس لتحقيقه الأسباب
 واصططع آق طای لفسه بطانة وحاشية كحاشية الملوك ،
 وجعل على نابه حرساً وطبلاً وموسيقى واتحد له شعاراً وراية ،
 وأنشأ حيشاً من الممالك بأتمر بأمره ويمشى بين يديه فى مواكبه ،
 وصار له مطهر وحاه وأمر وهى وسلطان ، فانه ليحير ولا يحار
 عليه . ولا تعدد الشعاعات إلا من بابه ، ولا يمضى أمر
 لا يقره

وصاق أيلك درعاً ممافسه . وحاول أن يريجه من طريقه

• ليخلص له مطهر الملوكية في مصر فأقطعه الاسكندرية .
ولكن ذلك لم يجد عليه شيئاً

واسترسل آق طاي في علوانه ، فأرسل إلى الملك المطهر الأيوبي
صاحب حماة يحطب إليه ابنته فأحابه ، وحملت العروس في
تجمل رائد إلى دمشق في طريقها إلى القاهرة

وسعى آق طاي إلى أهلك يسأله أن يأذن له في أن يتحد
لعروسه قصرآ في القلعة لأنها من بنات الملوك !

وصرت أسان أهلك عيطآ وحقآ ولكنه أمسك عن الحواب
حتى يرجع إلى شجرة الدر يسألها الرأي

في ذلك الحادث دون غيره ، رأت شجرة الدر ما يبال من
كبريائها ويمس عبرتها . فليكن موقف آق طاي من أهلك
حيث يشاء ، وليأفسه على ما في يده من أسباب الملك إن كان
في يده شيء من أسباب الملك . أما أن يتزوج امرأة من
بنات الملوك ويسكنها قصرآ في القلعة — مثل شجرة الدر — فتلك
إهانة لا يعسلها إلا الدم !

وأشارت على روحها بالرأي

ودعا أهلك آق طاي إلى القلعة ليبادل حديثآ في بعض
الشئون ، فأحاب آق طاي دعوته غير مرتاب ، وصعد إلى
القلعة ودخل القصر ، فلما صار في قاعدة الأعمدة حيث تعودت

الملكة أن تتخذ مجلسها . وثب عليه بعض المماليك فاحتزوا
رأسه . . .

ومات قبل أن يتزوج !

وبلغ النبأ أصحابه . فصعد منهم إلى القلعة سبعمائة على
حمية ، بينهم بيرس وقلاوون ، لا يكاد أحد منهم يصدق أن
أيك قد حرؤ على آق طاي فاغتاله ، فما هى إلا أن بلعوا
أسوار القلعة حتى ألقى إليهم رأس أميرهم ، فتمرقوا محزوين
قد بلغ منهم اليأس كل مبلغ ، ولم يطف لهم المقام بعد فى مصر
فخرجوا مهاجرين وأحرقوا فى طريقهم باب القاهرة الشرقى
وابراح عن كاهل أيك عبء كان يثوده ، فظن أن قد ملك
واستقل ودانت له البلاد !
عل أن شجرة الدركات لم ترل قاصصة على الصوبلجان .

١٧

— إني لأحمل والله يا قطر من الهم لذلك ما لا يكاد يحتمل ،
والناس يطوبون السعادة !
— وماذا يجمع يا مولاي أن تجتمع لك أسباب السعادة

وأنت ولى الأمر فى هذه البلاد لا تملك إلا طاعتك فيما تأمر
وتنهى ؟

— أكذلك تظن يا قطز ؟ فكيف لو علمت أننى لا أكاد
أنعم برؤية ولدى « على » إلا مستحياً وعلى حذر ورقية ، وقد
تقطعت بينى وبين أمه الأواصر فليست منى ولست بها !
— كيف يا مولاي وإنه لولدك ، وإن أمه لروحك ،
وقد فرص عليك ديبك أن تقسم بالسوية بين روحتيك ،
وفرصت عليك المرءة أن تحتضن ولدك البكر لينشأ على
عبيك !

— وشجرة الدر يا قطز ؟
— ما لشجرة الدر ولهذا ؟ أتحرم عليك أن ترى روحتك
وولدك ؟ هما هى إذن ذات دين ولا لها عليك حق الزوجة !

— لا حق الزوجة ولا حق الرعية يا قطز ، إن شجرة الدر
هى الملكة الحاكمة . وما راد الملك المعز باعتلائه العرش شيئاً
على ما كان أليك الحاشكير ، على ذلك اتفقنا يوم حلعت
بفسها وألستنى التاح والحلة طاعة لأمر الحليفة ، وعلى ذلك
عاهدتها ولا رلت وفيماً مما عاهدت !

— فليكن مكانها منك حيث شئت وشاءت مقتضيات الحكم

والسياسة . ولكن ما شأنها بروحتك وولدك ١ وكيف تحول
بينك وبينهما ؟

— على ذلك اتفقنا أيضاً يوم رصيتى روحاً ملكاً !

— على المعصية ؟

— لا يا قطز ، فقد اتفقنا يومئذ على أن أطلق أم ولدى
لأخلص لها ، ولكى لم أقو على ذلك وتحسبى شجرة الدر
قد وفيت ، فليست أم ولدى فيما تظن إلا مطلقة لا حق لها
— وولدك على ؟

— كنت آمل أن يكون لى ولد من شجرة الدر أتعوض به
من على وأوليه عهدى ، ولكنها لم تحبل ولم تلد !

— وحرمت سلطة الملك ، وسلطة الزوج ، وسلطة الأب ،
وحرمت روحتك وولدك ، ووادت بنيك فى صلك حين ارتبطت
إلى هذه المرأة العقيم لا تحلص إلى غيرها من النساء والحوارى ،
وكت حرياً أن تتكثر من الأبناء ليكون لك عزوة تسد عرشك
وأنت على رأس دولة يرجى أن تتسلسل فى الأبناء والحمدة على
امتداد التاريخ !

— ولكنى أكره أن أنكث بما عاهدتها يا قطز

— وعلام عاهدتها ؟

— أن أقطع ما بينى وبين أم على

— فلك ماض يا مولاي من هذا العهد بزواح حديد.

— رواح حديد ٢

— نعم ، ولعلك أن تحدى الصهر الحديد جاهاً يدعم عرشك
ويشد عرمك ، ولعل روحة جديدة أن تحب لك وتكثر ولدك .
ولعل شجرة الدر حين ترى لها صرة أن تنسه الأثني فيها فتعطيك
مقاداتها لتكسب ودك ، فيعود لك بذلك سلطة الملك . وسلطة
الروح . وسلطة الأب ، وتسعد !

أطرق الملك المعر برهة مفكراً ، وأمسك علامه قطر وقد
تعلقت عيابه بسيده . لا يعرف أين يتهى به الفكر فيما عرس
عليه من مشورة

ثم رمع أيلك رأسه إلى علامه قائلاً

— ومن تراه أهلاً لأن أصهر إليه يا قطر من ملوك المشرق ٢

— إن شئت يا مولاي فاحطب إلى الملك الرحيم بدر الدين
لؤلؤ صاحب الموصل استه لؤلؤة ، وإيه لدوحاه وكرامة .
وحبله موصول بدار الخلافة فى بغداد . فما أحراه إن أصهرت
إليه أن يحمل الخليفة على تشريك الخلعة واللواء ويقرك على
عرش مصر وإن شئت يا مولاي فاحطب إلى الملك المصور
ابن المطهر الأيوبي صاحب حماة ابنته ، ليتصل سديك بى
أيوب فلا ينتقص عليك مهم منتقص .

قال الملك المعز .

— كليهما يا قطز ! وقد رخص الله للمسلم في أربع

حرائر !

وبعث الملك المعز مند العبد رسولين إلى حماة والموصل

* * *

قال الشيخ بدر الدين السحاري قاصي مصر

— احذر يا مولاي أن تمضي فيما اعتزمت ، وإني لأرحو أن

تقبل مشورتي . برأ بفلسك . وبالدولة . وشجرة الدر !

— ومالك أنت ولهذا يا بدر الدين " أفدلك من علم الحلال

والحرام تريد أن تصرني به . أم هو قضاء قصيته وما وليتك

قضاء مصر لتدخل بين الأزواج وروحاتهم وتقتحم على سرائر

الملوك !

— حق المسلم على المسلم يا مولاي أن يبصر له ويشير

عليه . وقد رأيتك واقفاً على شفير هار فأردت أن أبصرك بما

تحب قدميك من أسباب الهلكة ، وقد علمت ما كان لي من

الرأي في دولة الملك الصالح ، وقد كان — على علمه ودينه —

أوسع لي درعاً .

— وي ! وتراني أيضاً لا علم لي ولا دين ولا سعة ذرع !

— معدرة يا مولاي فما قصدت إلى هذا ، ولكي أقول

إننى عاصرت أحداث هذه الدولة وتمرست سياستها منذ بعيد ،
 ها أحذر أن تستمع إلى رأيي . وقد رأيته تحطبت إلى صاحبي
 الموصل وحماة ابنتيهما ، أما أولهما فإن له عرش مصر سبباً منذ
 كان بينه وبين الملك الصالح ما كان ، وإن بينه وبين التتار
 أسباباً وقد علوا على المشرق كله ويوشكون أن يدخلوا بغداد
 ليسألوا منها إلى مصر والشام ، فكيف تصنع إذا كان صهرك
 بدر الدين لهم حليفاً ، وأما الآخر فأمر من أمراء بني أيوب لا
 يرال يرى ويرى له من حوله أنه أحق منك بعرش مصر . فكيف
 تصنع إذا استيقظت الفتنة وبشت حرب بين مصر والأيوبيين
 وفي دارك ست المصور ٢ ثم إليك يا مولاي أب وروج وقد
 أشرفت على الستين ، وليس من البر بمسك أن تعرس بفتاتين
 دون العشرين . وإن لشجرة الدر عليك إلى ذلك حقاً لا يحمل
 معه أن تضارها باثنتين وقد وطأت لك السبيل إلى العرش والسيادة .
 فهذا ما أردت أن أقوله لأبرئ ذمتي وأؤدي حق النصيحة . . .

قال الملك المعر محققاً

— ثم ماذا يا شيخ ٣

— ثم يكون ما تراه يا مولاي

— فقد رأيت عرك من قصاء مصر يا بدر الدين فليس لك

منذ اليوم رأى ولا نصيحة ١

وشاع السأ حتى تحدث به الممالك والحوارى ، ثم راد شيوعاً حتى عرفته شجرة الدر . فمس منها كبرياء الملكة وعيرة الأنثى في وقت معاً . وعلا دمهها وثارت ثورة ملك أوشك أن يتحطم تاحه ويثل عرشه ، وثورة امرأة أوشكت أن تنتزع من رحلها ، وكأما حيل إليها عدها وقد حلا الملك المعز إلى ست بدر الدين صاحب الموصل فتحدثت إليه بما تحدثت عن شجرة الدر في سخرية وشماتة . فطاب للملك المعز أن يستمع إلى حديثها في سخرية وشماتة كذلك ، وكأما أبصرت ست المصور صاحب حماة حالسة على عرش بى أيوب تحيل عينيها فيما حولها من أسباب الترف والنعمة وهى تقول الحمد لله الذى رد على ملك أجدادى وأهلى من بى أيوب وأدال لنا من تلك الحارية ، فيؤمن الملك المعز على قولها ويستطرد محاملاً وهل كانت شجرة الدر في بى أيوب إلا حارية !

وامتد بها الوهم فكأما أبصرت بين وبات من نسل المعز يمرحون في حنات العرش ولا ولد لها ، وكأما حاهدت ما حاهدت طول حياتها لاستحلاص عرش بى أيوب لست بدر الدين أو بت صاحب حماة وما تسلسل من بينهما وباتهما ، ويتهى مجدها ليبدأ على أنقاصه محمد دولة بى أليك الحاشكير !

وتحيلت نفسها فى وحشة الليل قد أعلق من دوما الباب
ومضى إليك يتنقل بين مقاصير سائه يذوق من كل طعم ولا يشبع ،
وهى وحدها تتحرج عصص الآلام .

وكما يطارد الأطفال معتوهاً قد فقد نصف عقله فلا يرالود
به حتى يرتد مجبواً قد فقد ما بقى من عقله — كذلك طلت
أوهامها تطاردها !

وفقدت الأثني العيور نصف عقلها أسفاً على المحمد الذى
توشك أن تحلعه أو يوشك أن يحلعه ، وفقدت ما بقى حرناً
على الرحل !

ثم فاءت إلى نفسها قليلاً وراحت تدبر حطة وحيل إليها
أنها تستطيع أن تظل ملكة وروحاً . وأن يظل لها عرش ورحل .
عرش مصر نفسه ، ولكن الرحل غير إليك الخاشكير .

وكتبت كتاباً إلى الملك الناصر صاحب دمشق تدعوه إلى
الرحف على مصر ، وتمنيه أن تهى له أسباب النصر ، وأن . .
وأن تنزوجه !

وبلع كتابها الناصر ، فهم أن يجيها ، ثم اشترط أن تقدم له
عربون الصفة مقتل إليك

وعادت تفكر من جديد فى حطة غيرها ، وحاءها البأ

باعترام المعز على إبراهيم من القلعة إلى دار الوزارة بالقاهرة ،
ليهيئ قصر القلعة لعهد حديد .

يا ويلنا ! حتى القصر . لم يعد يتسع لها ، وكانت تقصص يدها
على القصر والعرش والملك والدولة جميعاً ! فلتدبر أمرها على
وجه جديد . .

ومثلت أمام مرآتها تؤامرها وتستمع لما تصف لعييها من جمال
لم يبله مر السنين ، واطمأنت إلى ما دبرت

وكان الملك قد هجر القلعة وأقام في ماطر اللوق مد أيام ،
فبعثت إليه رسوله يدعو ويتلطف في الدعوة ، فكأما حيل إلى
المعر أن شجرة الدر قد فاءت إلى طبيعة الأنثى حين يهجرها
الرجل فهتت إليه نفسها حين لج في البعاد ، فأحباب دعوتها
شيطاً راصياً

واستقبلته فرحة طيبة النفس قد أخذت ريبتها وتجملت ،
وبدلت له ما تبدل كل أنثى لمن تحب ، حتى ثاب إلى الأمان
والطمأنينة . . ثم قام إلى حمامه ليعتسل

لقد جرح هذا الرجل منها كبرياء الملكة وعيرة الأنثى ؛
فليكن انتقامها إذلالاً لكبريائه ورجولته في وقت معاً
ووثب عليه علمائها في الحمام فاسهلوا على رأسه ضرباً

بالقناقيب ويرعون أنثيه ، يموت حين يموت وقد تحطمت
كبرياؤه ودلت رحولته !

وصاح الملك تحت العذاب

— العوث يا شجرة الدر !

وأدركتها رقة الأنثى فأشارت إلى علمانها أن يكفوا . .
ولكن قائلا مهم استدرها

— إن تركناه يا حويد فلن يتنى علينا ولا عليك
وأقلت رمامها من يديها فسترت عيبيها ناكية وهي تهمس
في إشفاق ورحمة

— أيلك !

ولكن أيلك لم يسمع هتافها ، فقد زهقت روحه قبل أن
تصافح أذنيه كلمة الحنان تلفظها شفتاها ، وقد عاش ما عاش
على أمل كلمة حنان تلفظها شفتاها !

واستدارت الملكة الأرملة على عقبيها وقد سترت وجهها
بكفيها وتتابعت على خديها الدموع

هذا ملك ثان يموت تحت عيها ولا تدري كيف توارى

سوءته

وعاودها حنان الأنثى فحملته على صدرها إلى مخدعه .

ثم أسلت أجماعه ، وشدت لثامه ، ومدت على وجهه العطاء ،
ثم أغلقت من دونه الباب وأوت إلى عرقها تعكر

امرأة فى رويق الصبا قد فقدت رحلها .
ملكة ذات سلطان توشك أن تنزل عن العرش
قائد فى المعركة قد أحيط به ويوشك أن يتحلى عه
عسكره ..

كذلك كانت مند نصع سنين يوم دهم الموت الملك الصالح
بالمصورة ، وكذلك هى الليلة - ولكنها الليلة لا تملك تدبيراً
ولا فكراً لأن فى نفسها روح الجريمة
وأوشكت أن تصرح مستعينة ، ثم تماسكت - وتحطها
الشیطان فلم تحس تدبيراً ولم تحكم فكرة
وأشرق الصباح على حسد مسحى فى فراشه وإلى جابه
امرأة باكية ، وعرف كل من فى القصر أن الملك المعرقد مات

قالت المرأة وقد وقعت إلى حاب ولدها نراء سرير الميت
— لا ، لم يمت حتف أنه ، بل قتلته شجرة الدر
— من أين لك علم هذا يا سيدتى ؟
— لأنه أراد أن يروعاها بصرتين

— ولماذا لم تقتليه أنت يوم راعك بروج شجرة الدر؟

— كنت أترص به !

وأمسك السائل ، وطر المصور على بن أليك إلى أمه مسكراً
ما تقول . فرأى دموعاً تنحدر على حديها . . .

هذه امرأة أخرى تنكى رحلها وكأت تترص به . كذلك
الساء جميعاً تهيجهن العيرة فلا يعرف فرق ما بين الحب
والعص ، ولا ما بين القصاص والحريمة . ثم ينتدر الموت
إلى من أنعصه بغص العيرة ، فيعرفن ، ولا يدقن طعم الحب
إلا مللاً بالدمع !

* * *

وولى الملك المصور على بن أليك عرش أبيه صبيّاً لم يبلغ
الحلم ، وصعد وأمه إلى قصر القلعة ، وقام على أمره الأمير سيف
الدين قطز مملوك أبيه . .

وأرادت أمه أن تقبض على شجرة الدر ولكها احتمت بالدرج
الأحمر في القلعة ومعها مماليكها ، أكاأت تحاول القص عليها
لئلاّ لمسها من صرتها ، أو تتأثر لروحها من قائلته !

وأقيمت شجرة الدر أن مماليكها لن يجمعوها طويلاً ووراءها
صرتها تطلب الثأر ، فلم تحش الموت ، ولم تفكر في الهرب ،
لأن شيئاً آخر غير الموت وغير الهرب كان يستأثر بتمكيرها .

جواهرها وحليها إليها لتخشى أن تقع تلك الحواهر والحلى في
يد صرتها ، تغار أن يكون لصرتها بعد مقتلها حلى وجواهر
وزينة ، فجمعت كل ذلك وبخفته في هاون وأدرته في الريح ،
ثم أسلمت نفسها .

* * *

وماتت شجرة الدر ، ولكن قبرها في القاهرة ما يزال مثانة
للزائرين والرائرات ، وما تزال صحائفها تتلى على نوالى القرون

المطرية — القاهرة محمد سعيد العريان



مطبوعات مصرية

المسند (الجزء الثالث)

للامام أحمد بن حنبل وشرح الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر
الكتاب الذي جعله مؤلفه للناس إماماً يرجعون إليه في
تعرف السنة، وهو كالأصل لكتب الحديث (٨٠ قرشاً)

ديوان الجارم (الجزء الرابع)

للاستاذ على الجارم بك

تجمة أدبية رائعة تصم طائفة من القصائد الرابطة للشاعر
الطائر الصيت على الجارم بك في مختلف الأغراض

العلم في فتنجان

للاستاذ حس عبد السلام

دائرة معارف علمية مصورة لأهم الأبحاث والكشوف
العلمية الحديثة في الكيمياء والطبيعة والطب والفلك والكهرباء
وعلم الأحياء بأسلوب موحز جذاب

مجلة الكتاب

(١٠ قروش)

جزء نوفمبر ١٩٤٧

روضة الطفل

- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كنت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفر والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطلة السوداء

أول مجموعة من نوعها
باللغة العربية يجيد
الطفل فيها قصصاً مفيدة
مزيّنة بالصّور المبتكرة
ومطوّعة بالألوان الجميلة

المجموعة الجديدة بأن توضع بين يدي كل طفل
لتصعد به إلى الدّرجة الأولى من سلم المعرفة
في حبّ من المتعة والتسلية.....

تصدرها
دار المعارف بمصر



أفلام

جموعة من القصص الرشقة المفيدة يجد فيها
كل طالب وطالبة في جميع مراحل النمو المتعة
والثقافة وسمو النفس . فهي تذكرة للآباء بمطالب
أبنائهم ، وتبصرة للأبناء بفضل آباؤهم عليهم .

طهر منها :

١ عمرون شاه ١٢ قرشاً

٢ مملكة السحر ١٢ قرشاً

٣ كريم الدين البغدادى ٢ قرشاً

يظهر قريباً :

٤ آلة الزمان

إخراج أنيق • ورق فاخر • رسوم فنية



الإشراف

الإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

